جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في عرض النظم القرآني لقصة سيدنا آدم ■ عليه السلام ■

(دراسة تحليلية مقارنة في أسرار التناسب)

الدكتور
عصام عبد الحافظ عبد العال
مدرس البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بأسيوط

العدد الثامن عشر
للعام ١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م
الجزء الرابع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٤م

الترقيم الدولى ISSN 2356-9050

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد: –

لا يخفى على دارسي البلاغة العربية أن المطالع طالما كانت من أهم المباحث النقدية والبلاغية لدى علماء العربية قديما وحديثا، وقد وصل اهتمام النقاد البلاغيين القدماء بالمطلع إلى اعتباره مقياسا بديعيا يسهم في جمالية القصيدة ، مما جعلهم يقدمونه على غيره في الكتب البديعية التي عالجوا فيها أنواع البديع ، كابن المعتز في كتابه البديع ، وأبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين ، وصفي الدين الحلبي في كتابه شرح الكافية البديعية ، في حين أنهم لم يكتفوا بمجرد الإشارة إلى قيمته البلاغية بل وضعوا له شروطا ومعايير تحقق ميزته الفنية ، وجعلوه على رأس الفنون البديعية بما أطلقوا عليه من (براعة المطلع) و(براعة الاستهلال) و(حسن الابتداء) و(حسن الافتتاح) وغير ذلك من المصطلحات البلاغية .

وللمطلع وظيفته التمهيدية، (والتمهيد يكون بذكر ما يعلم السامع له أي معنى يساق القول فيه قبل استتمامه، وقبل توسط العبارة عنه)([1]) .

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ص ١٧، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٥٦ هـ .

وعلاقة المطالع(١) بالمقاصد(٢) هي علاقة الدلالة ، والإشارة ، والإيحاء، والإنباء بما هو آت، ويتفق في هذا طريق القرآن، وطريق الشعر، والخطب، والرسائل ، وكل أساليب البيان ، فهو طريق شامل لكل الأساليب العالية، وأعلاها كلام الله - عز وجل - وما حديث علماء القرآن عن علاقة فواتح السور بمضامينها ، وعلاقتها بخواتيمها إلا من هذا الباب .

وقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ قصة سيدنا آدم -عليه السلام- فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ: فِي الْبَقَرَةِ، وَالْأَعْرَافِ، وَالْحِجْرِ، والإسراء، وَالْكَهْفِ، وَطَه ، وص ، وإنما " جاءت لنا في آيات متعددة؛ لتعطينا في مجموعها قصة كاملة ، وفي الوقت نفسه كل آية لها حكمة يحتاج إليها التوقيت الذي نزلت فيه . . . إذن فهناك أشياء كثيرة

---

(١) المطالع واحدها مطلع " (طلع) الطَّاءُ وَاللَّامُ وَالْعَيْنُ أَصْلٌ وَاحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ عَلَى ظُهُورٍ وَبُرُوزٍ، يُقَالُ: طَلَعَتِ الشَّمْسُ طُلُوعًا وَمَطْلَعًا. وَالْمَطْلَعُ: مَوْضِعُ طُلُوعِهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ} [القدر: ٥] . فَمَنْ فَتَحَ اللَّامَ أَرَادَ الْمَصْدَرَ، وَمَنْ كَسَرَ أَرَادَ الْمَوْضِعَ الَّذِي تَطَّلِعُ مِنْهُ. وَيُقَالُ : طَلَعَ عَلَيْنَا فُلَانٌ، إِذَا هَجَمَ. وَأَطْلَعْتُكَ عَلَى الْأَمْرِ إِطْلَاعًا. وَقَدْ أَطْلَعْتُكَ طَلِعَهُ. وَالطِّلَاعُ: مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مِنَ الْأَرْضِ ...وَمِنَ الْبَابِ: اسْتَطْلَعْتُ رَأْيَ فُلَانٍ، إِذَا نَظَرْتَ مَا الَّذِي يَبْرُزُ إِلَيْكَ مِنْهُ. وَطَلْعَةُ الْإِنْسَانِ: رُؤْيَتُهُ ؛ لِأَنَّهَا تَطْلُعُ، وَرَمَى فُلَانٌ فَأَطْلَعَ وَأَشْخَصَ، إِذَا مَرَّ سَهْمُهُ (معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة طلع (٣/ ٤١٩) المحقق: عبدالسلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر ،عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، ولسان العرب لابن منظور مادة طلع (٨/ ٢٣٥) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ)

(٢) المقاصد واحدها مقصد ، " الْقَافُ وَالصَّادُ وَالدَّالُ أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ، يَدُلُّ أَحَدُهَا عَلَى إِتْيَانِ شَيْءٍ وَأَمِّهِ، وَالْآخَرُ عَلَى اكْتِنَازٍ فِي الشَّيْءِ. فَالْأَصْلُ: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا. وَمِنَ الْبَابِ: أَقْصَدَهُ السَّهْمُ، إِذَا أَصَابَهُ فَقَتَلَ مَكَانَهُ، وَكَأَنَّهُ قِيلَ لِأَنَّهُ لَمْ يَحِدْ عَنْهُ. وَالْقَصْدُ: اسْتِقَامَةُ الطَّرِيقِ. قَصَدَ يَقْصِدُ قَصْدًا، فَهُوَ قَاصِد. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ؛ أي عَلَى اللَّهِ تَبْيِينُ الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ والدعاءُ إليه بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ الْوَاضِحَةِ، وَمِنْهَا جَائِرٌ أي وَمِنْهَا طَرِيقٌ غَيْرُ قَاصِدٍ. وطريقٌ قاصِدٌ: سَهْلٌ مُسْتَقِيمٌ. وسَفَرٌ قاصِدٌ: سَهْلٌ قَرِيبٌ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ؛ قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: سَفَرًا قَاصِدًا أي غيرَ شاقٍّ. والقَصْدُ: العَدْل (مقاييس اللغة مادة قصد (٥/ ٩٥)، وينظر : لسان العرب مادة قصد (٣/ ٣٥٣)

تتعرض لها قصة آدم ، ولو أن بشرا يريد أن يؤرخ لآدم ما استطاع أن يأتي بكل هذه اللقطات ، ولكن الحق - سبحانه وتعالى - جعل كل لقطة تأتي للتثبيت."(١)

وإذا كانت المقدمة ليست مجالا لإثبات هذا الأمر إلا أنه يمكننا الاكتفاء بالقول : إنه من الملاحظ في عرض القرآن الكريم لقصة سيدنا آدم - عليه السلام - في سورة البقرة أنها جاءت مجملة لكل مراحل القصة ، ثم تأتي بعد ذلك بقية السور القرآنية التي وردت فيها القصة مفصلة لما أجملته السورة الكريمة ، فكأن القرآن الكريم بهذا العرض الإجمالي للقصة في سورة البقرة يريد ترسيخها في الأذهان ؛ حتى تستقر في القلوب من أول وهلة .

وهذا التتابع الإجمالي في عرض القصة في سورة البقرة مرحلة بعد مرحلة ، وكل مرحلة تسلمك للتي بعدها يعد من قبيل تصعيد المعاني" وهو طرد الكلام حثيثا في مقدمات يسلم بعضها إلى بعض ، كأقيسة المنطق توصل في سرعة وسلاسة إلى النتيجة بحيث لا يشعرالمخاطب من سرعة التتابع ، والانقياد للمسلمات بجهد دون غايته "(٢)

وقد وجدت أن المنهج التحليلي المبرز للمعاني الواردة هو الأنسب لاستيضاح جانب الإبداع القرآني في تلك القصة ، وذلك بتحليلها تحليلا بلاغيا، مما يساعدنا على فتح مغالقها ، والوقوف على أسرارها ، والعناصر الفنية التي تجمعها ؛ لتُخرج لنا كيانا واحدا متكاملا ، يأخذ بعضه برقاب بعض ، ويحيل كل عنصر منه وكل تركيب إلى الذي يليه ، مرتبطا بالمطلع أشد ارتباط، باعتباره نقطة ارتكاز وانطلاق وابتداء لبقية ألفاظ المقصد وتراكيبه ، وفي هذا السياق أذكر أني قد سرت في منهج البحث مستضيئا ومقتديا بالمنهج الذي أشار إليه الأستاذ الدكتور / إبراهيم صلاح الهدهد في كتابه : (علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم (دراسة بلاغية . نظرية . تطبيقية) ، ومن هنا فقد بنيت هذا البحث على الركائز الآتية : .

---

(١) تفسير الشعراوي المؤلف:محمد متولي الشعراوي (١/ ٢٣٩)الناشر: مطابع أخبار اليوم.
(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية د/كمال عز الدين ، ص ٣ ٢٥ ، ط.دار أقرا ، ط.الأولى ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م.

١ ـ علاقة المطلع - بعد تحديده تحديدا دقيقا - مع بناء السورة الذي ورد فيها، وما يكتنفها من جزيئات ، ثم مع ما يجاوره من سياقات ، ومدى إتفاقه مع ما يتقدمه ، وما يعقبه من سياقات في الجو النفسي للآيات .

٢ ـ تحديد الغرض العام للسياق ، ثم علاقة المطلع مع ما يكتنف السياق العام من جزيئات صيغت صياغة تراعي تجاورها مع بعضها بما تمثله من وحدة عضوية في بناء الصورة العامة للقصة .

٣ ـ علاقة المطلع مع الصورة الكلية للقصة بما فيه من نبرة صوتية معينة ، أو نمط صوتي معين ، بحيث يُكون كل موضع من مواضع القصة صورة جزئية من القصة ويعبر عنها ، ثم يأتي مجموع هذه المواضع ليُكون الصورة الكلية للقصة .

٤ ـ بيان مفردات المطلع ، وتراكيب نظمه ، ومدى وقوعها كمقدمة للمقصد، مع المقارنة بين المطالع المختلفة التي وردت في القصة ، والوقوف على أساليبها ، وطرق البيان فيها .

٥ ـ بيان مفردات المقصد ، وتراكيب نظمه ، ومدى مناسبتها للمطلع ، مع الوقوف مع متشابه النظم الذي ورد في القصة ، وبيان أثره في استكشاف علاقة المطلع بالمقصد .

٦ ـ محاولة الوقوف مع خاتمة الآيات ، وأثرها في استكشاف علاقة مطلع الآيات بمقصدها .

ومع هذا المنهج وطريقة السير الذي راعيت فيها إبراز المعاني الواردة في السياق رابطا بين المطالع والمقاصد في الآيات إلا أنني لم أغفل الإشارة إلى مراحل القصة التي مرت بها ، والتركيز عليها ، وبيان مدى تكاملها للوصول في النهاية إلى اللوحة الكاملة للقصة .

هذا وقد اقتضت طبيعة هذا المنهج أن يأتي البحث في مقدمة ، وستة مباحث ، وخاتمة يعقبها فهرس للمراجع والمصادر .

المقدمة : قد ذكرت فيها منهج البحث ، وخطته ، وطريقة السير فبه .

المبحث الأول: علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق التكريم المطلق.

المبحث الثاني : علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق التكريم المشوب بالعتاب

المبحث الثالث : علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق بيان سر تكوين آدم -عليه السلام- .

المبحث الرابع : علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق بيان قوة المواجهة بين إبليس ، وبني آدم- عليه السلام - .

المبحث الخامس : علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق التنظير بين حال إبليس ، وبني آدم – عليه السلام –

المبحث السادس: علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق تكريم سيدنا آدم عليه السلام بالعهد ، وإعذاره بالنسيان .

ثم انتهى البحث بفضل من الله ومنة إلى خاتمة تلقي الضوء على أبرز ما فيه وتلخص أهم النتائج التي توصل إليها الباحث .

وبعد

فهذا عملي أقدمه بين يدي أساتذتي ، لا أدعي فيه الكمال؛ فإن الكمال لله وحده ، فإن كنت قد أصبت فذلك بفضل الله وحده ، وإن كانت الأخرى فبسبب تقصيري ، وحسبي أنني اجتهدت فيه قدر استطاعتي ، وأدعو الله (عز و جل) أن يتوج هذا العمل بالنجاح والقبول والتوفيق ، (وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ) [١] (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) [٢] .

(١) سورة إبراهيم آية ٢٠

(٢) سورة هود آية ٨٨

المبحث الأول :ـ علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق التكريم المطلق

قال تعالى :{ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدمآء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِني أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَءَادَمَ الأسمآء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هاؤلاء إِن كُنْتُمْ صادقين * قَالُواْ سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ العليم الحكيم * قَالَ يَآءَادَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِني أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين * وَقُلْنَا يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين * فَأَزَلَّهُمَا الشيطان عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إلى حِينٍ * فتلقىءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كلمات فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التواب الرحيم * قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * والذين كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنآ أولائك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون} (١)

علاقة المطلع مع بناء السورة الكلي ، وما يكتنفها من جزيئات .

إذا نظرنا إلى مدى ملاءمة مطلع الآيات بقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) مع سياق السورة الكلي نجد أنه يتناسب مع سياق السورة من خلال محوريها الرئيسين ، أولهما :ـ أن المطلع بما فيه من إخبار بخلق سيدنا آدم -عليه السلام- يتناسق مع سياق السورة بما فيه من وجوب الإيمان بالغيب ، حيث جاء مطلع السورة بقوله تعالى : (الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ. . .)(٢) ؛ ومن هنا تكرر في

(١) سورة البقرة الآيات ٣٠ – ٣٩

(٢) سورة البقرة الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

هذا السياق لفظ العلم بمشتقاته كثيراً قال تعالى : (إِنِي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ) ، ثم تقر الملائكة هذه الحقيقة ، فتقول : (سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ العليم الحكيم) ، ثم يقول تعالى مرة أخرى : (إِنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

وآخرهما : . أن المطلع بما فيه من إخبار بكون سيدنا آدم - عليه السلام - سيكون خليفة الله في الأرض- يتلاءم - أيضاً - مع ما جاء في السورة من الحديث عن إنعامه وتكريمه لبني الإنسان ؛ ولذلك نجد أن أول نداء جاء في هذه السورة ، وفي القرآن جاء مذكرا بتلك النعم ، وبذلك التكريم ، فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (١)

ونجد أن قصة آدم في سورة البقرة جاءت بعد قوله تعالى : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ)(٢) وهذه الآية في سورة البقرة تدل على تكريم الله - سبحانه وتعالى- للإنسان بأن خلق وهيأ له ما في الأرض ، واستخلفه فيها ، وذكر بعدها في عدة آيات استخلاف آدم عليه السلام ، وتعليمه الأسماء ، وفي كل هذا تكريم لآدم عليه السلام ، ولقد " عَطَفَتِ الْوَاوُ قِصَّةَ خَلْقِ أَوَّلِ الْبَشَرِعَلَى قِصَّةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؛ انْتِقَالًا بِهِمْ فِي الِاسْتِدْلَالِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ ، وَعَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ ، وَتَخَلُّصًا مِنْ ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى خَلْقِ النَّوْعِ الَّذِي هُوَ سُلْطَانُ الْأَرْضِ ، وَالْمُتَصَرِّفُ فِي أَحْوَالِهَا . . . فَكَانَتِ الْمُنَاسَبَةُ فِي الِانْتِقَالِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِهِ وَاضِحَةً ، مَعَ حُسْنِ التَّخَلُّص إِلَى ذكر خَبَرَهُ الْعَجِيبَ، فَإِيرَادُ وَاوِ الْعَطْفِ هُنَا ؛ لِأَجْلِ إِظْهَارِ اسْتِقْلَالِ هَذِهِ الْقِصَّةِ فِي حَدِّ ذَاتِهَا فِي عِظَمِ شَأْنِهَا."(٣)

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٢) البقرة الآية ٢٩ .

(٣) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١ / ٣٩٥)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

مفردات المطلع وتراكيب نظمه كمقدمة للمقصد .

إذا نظرنا إلى موضع سورة البقرة باعتبار أنه يمثل مرحلة ما قبل الوجود ، حيث الحديث عن الغاية من خلق الإنسان ببيان بعض خصائصه الوهبية - والتي تمثل مقصدها . نجد أنها واردة على سبيل الإجمال لكل مراحل القصة منذ بداية الخلق وانتهاء إلى مرحلة الهبوط للأرض ، وهي تمثل معاني التكريم لسيدنا آدم في كل مراحل القصة ، ومن هنا فإن القسيم المشترك لكل معاني القصة وسياقاتها وجميع مراحلها هو التكريم ، وما يأتي معها من معان أخرى فهي معاني تتناسب مع سياق الآيات ، والسورة الواردة فيها ، والمرحلة التي تتحدث عنها من مراحل القصة . والتكريم الذي صورته آيات سورة البقرة على وجه الإجمال من ثلاث وجوه : أولهما : التكريم بالعلم ، وثانيهما : التكريم بالأمر بالسجود له ؛ تعظيما لشأنه ، وثالثهما : تكريمه بسكنى الجنان هو وزوجه .

وإذا نظرنا إلى مطلع قصة سيدنا آدم- عليه السلام - في سورة البقرة المتمثل في قوله تعالى : : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) نجد أنه تشابه مع كثير من مطالع هذه القصة الكريمة من حيث أنها جاءت في معظمها متحدة في صدرها مع هذا المطلع ، فالأسلوب في بداية معظم مطالع القصة ، يتكون من إذ ، وفعل القول المنسوب للذات العلية ، والخطاب الموجه للملائكة ، والإخبار بالخطاب الموجه لسيدنا محمد-ﷺ –

ولكن يمكن القول : أن تعليق الفعل (قال) بإذ بما فيها من معنى الوقت(١) في هذا السياق جاء لأسباب منها :

---

(١) قال العلامة الزجاج : "(إذ) و (إذا) حرفا توقيت، إلّا أنّ (إذ) للماضي و (إذا) للمستقبل، وقد يوضع أحدهما موضع الآخر(معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١ / ١٠٩) ، الناشر: عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م) .

(١) أن (إذ) علقت فعل القول بالوقت ، وجعلته مخصوصاً به ، ومن ثمَ ففي التقييد بقوله : (وَإِذْ قَالَ) فيه بيان لزمن عرض هذه القصة ، وفي ذلك يقول العلامة أبو السعود : " تعليقُ الذكر بالوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما وقع فيه من الحوادث ؛ لما مر مرارا من المبالغة في إيجاب ذكرِها ، فإن الوقتَ مشتملٌ على تفاصيل الأمورِ الواقعةِ فيه ، فالأمرُ بذكره أمرٌ بذكر تفاصيلِ ما وقع فيه بالطريق البرهانيِّ ؛ ولأن الوقتَ مشتملٌ على أعيان الحوادثِ ؛ فإذا ذكر صارت الحوادثُ كأنها موجودةٌ في ذهن المخاطب بوجوداتها العينية " (١)

(٢) أن في ارتباط فعل القول بإذ التي بمعنى حين بما فيها من ملاحظة الوقت دليل على نفي الحول والقوة والعلم عن غير الله ، حتى ولو كان الملائكة المقربين ، ويظهر ذلك جلياً من ارتباط هذا الوقت بفعل القول ، وتوجيهه للملائكة ، وصدوره في حيز التأكيد في قوله : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً) .

(٣) إذا كانت مفردات المطلع وتراكيب نظمه تعد بمثابة المقدمة للمقصد ، فإن (إذ) في بداية المطلع هنا في سورة البقرة تعطي ملمحاً خفياً ، وملحظاً دقيقاً لم يكن متوقعاً وبعيداً عن الأذهان، ولهذا أكثرت الآيات من التفصيل، ومن الجزيئات الموضحة للحكمة من هذا الأمر، ومن هذا الحدث الجديد سواء بالإيجاد ، أو بالخلق والتكوين .

(٤) بداية المطلع بإذ فيه دلالة - أيضا - على التفرد والإتقان ، ومن هنا جاءت جزيئات المقصد موضحة لتفردة تعالى بالحكمة من خلقة آدم - عليه السلام - وبالعلم بالغيب من إيجاد الأمور، فالتعبير بإذ يتلاءم مع ما غاب عن الملائكة من اختصاص آدم برفع منزلته ، وبجعله أهلا لما خلق له .

وفي إسناد الفعل (قال) إلى لفظ الربوبية ، مما يتناسب مع المراد من تجلية الموقف للملائكة ، وإظهاره لهم عن اقتناع ، وإعمال للفكر دون فرضه

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، للعلامة أبي السعود (٦ / ٤٥): الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

فرضا ، ويظهر هذا من الأسلوب القائم على الحوار بينهم ، وبين الله - عزوجل - في جزيئات المقصد ،

" وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ أُطْلِقَ عَلَى مَا يَفْهَمُونَ مِنْهُ إِرَادَتَهُ ، وَهُوَ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِالْكَلَامِ النَّفْسِيِّ ، فَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ كَلَامٌ سَمِعُوهُ ، فَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهِ حَقِيقَةٌ ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ خَلَقَ ذَلِكَ الْقَوْلَ بِدُونِ وَسِيلَةٍ مُعْتَادَةٍ ، وَيَحْتَمِلُ أَنَّهُ دَالٌّ آخَرُ عَلَى الْإِرَادَةِ ، فَإِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَيْهِ مَجَازٌ ؛ لِأَنَّهُ دَلَالَةٌ لِلْعُقَلَاءِ " (١) " وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المجعول بأن بشَر ، تعالى بوجوده سكان ملكوته"(٢)

فالفعل (قال) المنسوب إلى لفظ الربوبية يدلل على أن هذا القول ينطوي على أسرار عدة وحكم شتى والتي منها : أن الله تعالى عالم بخفايا الأمور وبواطنها ، ومطلع على حكمتها ، وأن كرامته لا تخضع لأسس كونية أو مبادئ عقلانية فهو على ما يشاء قادر، وبمجرد قوله تعالى : (إِنِّي جَاعِلٌ) تتجلى الأسرار الإلهية ، والحكم الربانية من وجود سيدنا آدم ، وخلافته في الأرض .

فالقول هنا ينبئ عن إظهار سر مكتم وحكمة خفية من وجود آدم في الأرض ، كما أنه يعد ابتداء إظهار سره في آدم وذريته ، وينبىء كذلك عن ابتداء إظهار سره في إبليس ، وما تنطوي عليه نفسه من كبر .

وفي مجيء فعل القول بصيغة الماضي دلالة على تأكيد هذا القول ووقوعه ، هذا بالإضافة إلى ما يجلبه لفظ القول إلى المطلع من تشويق وحب استطلاع إلى المقول والحكمة منه ، خصوصاً إذا كان القائل هو المولى جل في علاه .

وفي تتبع لفظ (قال) في القرآن الكريم بحث رائق جميل جدير بالبحث والتنقيب والوقوف معه وقفة الباحث المدقق الحصيف الذي لا يقف على ظواهر الألفاظ ، بل يغوص في الأعماق ؛ ليصل إلى غاية الغايات في صدور هذا

---

(١) التحرير والتنوير ٣٩٧/١

(٢) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (١ /٤٥) ، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة ، عام النشر: ١٢٨٥ هـ

القول من الحكيم الخبير ، وما يحمله من أسرار إلهية ، وحكم ربانية "حتى يقف على حجة الله تعالى من الوجه الذي هو أضوأ لها ، وأنور بها ، وأخلق بأن يزداد نورها سطوعا ، وكوكبها طلوعاً ، وأن تسلك إليها الطريق الذي هو آمن لك من الشك ، وأبعد بك من الريب ، وأصح لليقين، وأحرى بأن يبلغك قاصبة التبيين " (١)

وإذا كان الإمام عبد القاهر قد ذكر أن الذي تراه في التنزيل من لفظ (قال) مفصولا غير معطوف . . . قد جاء على ما يقع في أنفس المخلوقين من السؤال(٢) ففي تتبعه في الذكر الحكيم الصادر عن الحكيم الخبير أجدر وأحرى بالبحث والتنقيب .

والتعبير بلفظ الربوبية يتلاءم مع مقام الحديث عن بداية الإيجاد ، أو مراحل الخلق ومادته ، وليس هذا فحسب ، بل إنه يتلاءم مع هذا الحدث الجديد سواء بالإيجاد ، أو الخلق لآدم وذريته من ظهره .

وفي إضافة لفظ الربوبية إلى سيدنا محمد - ﷺ - " تشرف منه له وإظهار لاختصاصه به"(٣)، ولعل في هذه الإضافة بداية التجلي للذات العلية، والإظهار للأسرار الربانية ، والمنح الكونية للبشرية برسالة خير البرية - ﷺ - وتثبيت له في الأرض قبل بداية خلق البشرية ، قال تعالى : (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) (٤) ، وقال تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) (٥) يقول العلامة الزجاج : " ففي إخبار النبي –

---

(١) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ص ٣٨ ، ت / : محمود محمد شاكر أبو فهر ، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م

(٢) ينظر : المرجع السابق ص٢٤٠ .

(٣) ينظر : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي المحاربي (١١٦/١) ، ت : عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

(٤) سورة الجن الآية ٢٦ ، ٢٧

(٥) سورة الحشر من الآية ٧

ﷺ – دليل على تثبيت رسالته ؛ إذ آتاهم بما ليس من علم العرب، وإنما هو خبر لا يعلمه إلا من قرأ الكتاب ، أو أوحي إليه به " (١)

ولعل في هذه الإضافة – أيضا- إشارة منذ بدء خلق البشرية على منح الأمة المحمدية الخيرية ، والخلافة في الأرض ، ومن هنا جاء في هذه السورة قوله تعالى : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)(٢) وهذه الآية تدل دلالة صريحة على منح هذه الأمة المحمدية الخيرية ، والخلافة في الأرض.

ولما كان هذا الخبر المحكي الجديد عن العزيز العليم ، والذي يمثل ملمحاً وتفرداً جديداً يحتاج إلى مجموعة من التأكيدات ، والألفاظ القوية المؤثرة الموجبة للإقناع والتأثير جاء أول خبر على جهة التقرير بقوله : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً) مشتملاً على حرف التوكيد (إن) وعلى بيان شدة التأثير باسم الفاعل (جاعل) بما فيه من دلالة على الثبوت والدوام ، وعلى كمال التمكين بحرف الظرفية (في) .

وإذا كان المطلع أثبت بتعبيره بلفظ الربوبية أن هذا الحدث الجديد ، وهذا الإيجاد لآدم وذريته تتجلى فيه مظاهر رحمته – تعالى – بخلقه وما حباه الله لآدم وذريته من خصائص ذاتيه ، فإن التعبير بضمير الذاتية الراجع إلى الذات العلية يُعد مظهرا من مظاهر تفرده – تعالى- بهذا الأمر، حيث إن علمه – تعالى – تعدى ظواهر الأمور إلى بواطنها ، ومن هنا عبر بعد ذلك بضمير الذاتية الراجع إلى الذات العلية بقوله : (إِنِّي جَاعِلٌ) ، ولم يستعمل النظم القرآني نا الفاعلين الدالة على العظمة والكبرياء ، وهذا فيه دلالة على اختصاصه – سبحانه – وتفرده بهذا الأمر بحيث لا يشركه معه غيره ، وهو من الأمور الدالة على وحدانية الله – تعالى – ومن ذلك قوله تعالى : (إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ)(٣) ، وهذا

(١) معاني القرآن وإعرابه ، (١ / ١٠٨)
(٢) سورة البقرة من الآية ١٤٣
(٣) سورة طه من الآية ١٤

كله يتواءم مع بقية ألفاظ الآيات ، يقول الطاهربن عاشور : " وَأُسْنِدَتْ حِكَايَةُ هَذَا الْقَوْلِ إِلَى اللَّهِ - سُبْحَانَهُ - بِعُنْوَانِ الرَّبِّ ؛ لِأَنَّهُ قَول منبىء عَنْ تَدْبِيرٍ عَظِيمٍ فِي جَعْلِ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَرْضِ، فَفِي ذَلِكَ الْجَعْلِ نِعْمَةُ تَدْبِيرٍ مَشُوبٍ بِلُطْفٍ وَصَلَاحٍ ، وَذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ "(١)

وإذا كان فعل القول يتناسب مع ما غاب عن علم الملائكة ، ومع تعليم الله لسيدنا آدم للأسماء ، فإن فعل الجعل هنا بما فيه من دلالة على التأثير والتحويل والإيجاد من العدم يبين أن هذا الجعل وهذا التأثير والتحويل يحتاج إلى أمور شتى ، ومواهب جمة تتوفر في الجاعل والمؤثر والفاعل وهو الله - عز وجل - فتحتاج إلى فعل ، وحكمة من هذا الفعل ، وقدرة عليه ، وعلم بالغيب من فعله ، وجزيئات المقصد توضح كل هذا ، وتبرهن عليه .

والفرق بين الخلق والجعل أن " الخلق: تَقْدِير وإيجاد، وَقد يُقَال للتقدير من غير إِيجَاد . . . والجعل: إِذا تعدى إِلَى المفعولين يكون بِمَعْنى التصيير، وَإِذا تعدى إِلَى مفعول وَاحِد يكون بِمَعْنى الْخلق والإيجاد "(٢)

وهذه الآيات إنما جاءت لتكون ابتداء إظهار سرّه -تعالى - في آدم وذريته، وذلك مما يتناسب مع التعبير بالجعل ، لأن الجعل يدل على ابتداء إنشاء للتهيئة لأمر معين ، والأمر المعين هنا ، هو أمر الخلافة ، و" إنما قال جاعل ، وما قال خالق ؛ لمعنيين أحدهما : أن الجاعلية أعم من الخالقية ، فإن الجاعلية هي الخالقية ، وشيء آخر وهو أن يخلقه موصوفاً بصفة الخلافة ، إذ ليس لكل أحد هذا الاختصاص ، كما قال تعالى : (يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ)(٣) أى : خلقناك مستعدا للخلافة فأعطيناكها ، والثاني : أن للجعلية اختصاصا بعالم الأمور، وهو للملكوت ، وهو ضد عالم الخلق ؛ لأنه هو عالم

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٠١)

(٢) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء الحنفي ص: ٢٩، ٣٠ ، ت/ عدنان درويش – محمد المصري ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت .

(٣) سورة ص من الآية ٢٢

الأجسام والمحسوسات ، كما قال تعالى : (أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)(١) أى : الملك والملكوت ، فإنه تعالى حيث ذكر ما هو مخصوص بعالم الأمر ذكره بالجعلية ؛ لامتياز الأمر عن الخلق ، كما قال تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ)(٢) فالسموات والأرض لما كانتا من الأجسام المحسوسات ذكرهما بالخلقية ، والظلمات والنور لما كانتا من الملكوتيات غير المحسوسات ذكرهما بالجعلية ... فكذلك لما أخبر الله تعالى عن آدم بما يتعلق بجسمانيته ذكره بالخلقية ، كما قال : (إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ) ولما أخبر عما يتعلق بروحانيته ذكره بالجعلية ، وقال : (إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) وفي إنى جاعل إشارة اخرى ، وهو إظهار عزة آدم - عليه السلام - على الملائكة ؛ لينظروا اليه بنظر التعظيم ، ولا ينكروا عليه بما يظهر منه ومن أولاده من أوصاف البشرية"(٣)

فإذا كانت آيات سورة البقرة تمثل الحكمة من وجود الإنسان ، وتوضيح ما غاب ، وبهذا ناسب معها التعبير بالإيجاد ومصدره وهو الله -عز وجل - والحكمة من اختيار الله لآدم في خلافته ، فإن موضع سورة الحجر، وسورة ص يمثلان مرحلة تالية للمرحلة الأولى ، وهي مرحلة الخلق والتكوين على التفصيل والترتيب من طين ، ثم من صلصال من حمأ مسنون ، ومن ثمَّ فموضع " سورة البقرة لا يخبر الله بخلق آدم فقط ، وإنما يتجاوز المستوى الإبلاغي للسياق إلى إخبار الملائكة إلى أن آدم سوف يكون الخليفة ، فجاء السياق متلائما ومنسجما مع لفظة (جاعل) " (٤)

---

(١) سورة الأعراف من الآية ٥٤

(٢) سورة الأنعام من الآية ١

(٣) روح البيان المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء (١ / ٩٥ ، ٩٦):الناشر: دار الفكر – بيروت .

(٤) قرينة السياق وأثرها في النص القرآني د / عبد الباقي بدر الخزرجي ، ص ١٢٦ ، مجلة كلية التربية الأساسية العدد الثامن والستون لسنة ٢٠١١م .

ولفظ (خليفة) يحتمل أن يكون استعارة ، أو مجازاً مرسلاً ، والمعنى : جاعل في الأرض مدبرا يعمل على ما نريده في الأرض ، وإما أن يكون الكلام على حقيقته على معنى أن الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات (١).

وفي قوله : (فِي الأرض خَلِيفَةً) بما فيه من دلالة على تمكين آدم في الأرض ، وبما فيه من تشريف لشأنه وإعلاء لقدره بكونه خليفة الله في الأرض، فيه إشارة وملمح إلى غرابة هذا الأمر على الملائكة ودهشته لهم ومجيئه من حيث لا يتوقعون ، وهذا ما دل عيه التعبير بإذ في المطلع ؛ ومن هنا عكفت جزيئات الآيات على إزالة هذه الدهشة وهذا التعجب ، بل وإقرارهم بذلك على أنفسهم .

ومن هنا فإن المطلع بما فيه إيجاز شديد، وملمح فريد يعد بمثابة الإجمال الذي يعقبه التفصيل في المقصد

ـ مفردات المقصد ، وتراكيب نظمه ، ومدى مناسبتها للمطلع .

لما بدأ المطلع بقوله : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ للملائكة إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً) أثار هذا المطلع انتباه السامع وشوقه لمعرفة سبب هذا الجعل والتكوين؛ فناسب ذلك كله أن يوضح المبهم ، ويفصل المجمل ، فجاء المقصد موضحاً الحكمة من ذلك الوجود للجنس البشري ، وهذا كله يعدُّ من قبيل الإيضاح بعد الإبهام ؛ وذلك ليتقرر المعني في نفوس المسلمين ، ويتمكن فيها فضل تمكن " فإن المعني إذا ألقي على سبيل الإجمال ، والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح ، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك ؛ فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن ، وكان شعورها به أتم" (٢).

فبداية القصة تتضمَّن الإثارة والتشويق من خلال ذلك الخبر الذي أخبر به المولى – عزَّ وجلَّ – ثم نجد صداه يرفع مستوى تلك الإثارة وذلك التشويقِ بسؤال الملائكة الذي يكشف عن خوفها من الله – تعالى – وكمال فضله ،

(١) ينظر : التحرير والتنوير (١ / ٣٩٨ ، ٣٣٩):
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني /١٩٧ ، شرح وتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجي بالهامش ، الناشر : دار الكتاب الحديث الكويت (بدون تاريخ)

فكأنها – وهي على ما هي عليه من العبادة – تخشى أن تكون قد قصَّرت في طاعة ربها " وقصدهم استكشاف ما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها ، وليس باعتراض على الله تعالى ، ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة ، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى: { بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }(١) " (٢)

فتصدير المقصد بلفظ القول الصادر عن الملائكة ، والمصور للحوار القائم بينهم وبين المولى- عز وجل - منسجم مع هذا الإخبار الجديد وإحساس الملائكة بالاندهاش تجاهه ، ومنسجم مع تعظيم هذا المخلوق وما حباه الله به من تكريم .

ونلحظ هنا أن النظم فصل بين الكلام على طريقة شبه كمال الاتصال ؛ لأنه يكون جواباً عن سؤال مقدر، فكأن المتكلم يسكت إسكاته خفيفة ؛ حتى يعالج السامع فيها المعنى بنفسه (٣)

وهذا التقابل في القول المحكي عن الملائكة بما فيه من استفهام يحمل معنى التعجب فيه إبراز لجو التعجب المسيطرعلى المستمع ، ويتناسب مع ما في المطلع من تدبير الحكيم الذي خفيت حكمته على الجميع ؛ ولذلك جاء التعبير بالفعل (تجعل) في المقصد ليتناسب مع المراد من المطلع من أن حكمه تعالى متعددة ، وأسراره في خلقه غير متوقعه . وهنا نلحظ عدم تكرار الأسئلة على لسان الملائكة ، وفي هذا دلالة على الاستسلام والانصياع لمراد الله ؛ لأنهم بسؤالهم أرادوا الاسترشاد بحكمة هذا الوجود للإنسان ، وإزالة الدهشة من ذلك الخبر الجديد .

---

(١) (الأنبياء، الآية ٢٦ ، ٢٧)

(٢) السراج المنير (١ / ٤٥)

(٣) ينظر : شرح أحاديث من صحيح البخاري (دراسة في سمت الكلام الأول) د / محمد محمد أبو موسى ، ص ٦٥ ، بتصرف الناشر : مكتبة وهبه ،ط١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١م

وجاء الكلام على جهة المقابلة الواردة على لسان الملائكة بقوله تعالى : (قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) لتوضح المقارنة بين خصائص الإنسان وما يتوقع أن يصدر منه ، وبين خصائص الملائكة وما يصدر عنهم ، وهي مقابلة لطيفة تبرز المعنى وتحدد المقصود ، فتبين مساوئ الأول وأمراض النفس البشرية ، ومميزات الثاني وروحانيات العالم الملائكي ، و" تَكْرِيرُ ضَمِيرِ (الْأَرْضِ) ؛ لِلِاهْتِمَامِ بِهَا ، وَالتَّذْكِيرِ بِشَأْنِ عُمْرَانِهَا ، وَحِفْظِ نِظَامِهَا ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ أَدْخَلَ فِي التَّعَجُّبِ مِنِ اسْتِخْلَافِ آدَمَ " (١)

وهذه المقدمة للمقصد بما فيها من مقابلة تمهيد لازم ، وتوضيح مهم ، يتضح من خلالها الغرض من هذا الاستفهام الصادر عن الملائكة الكرام ، وأنه استفهام جاء ليعالج موقفا خاصا ، وقضية مهمة تتعلق بالإنسان .

وجاءت الصياغة لسؤال الملائكة خالية من التوكيد الصريح، وكان مقتضى الظاهر أن يؤكدها ؛ ليزيل أى تردد أو استبعاد لما يقولون ، ولكن صياغة هذه الجملة هكذا بدون توكيد أشد توكيداً ، وأقوي تمكيناً للمعني في نفوسهم ، وكأنهم يريدون أن يبينوا أن هذا الأمر واضح معلوم لا يحتاج إلى تأكيد أو تحقيق ؛ لأنه حقيقة مقررة ، لا ينكرها أحد ، فكيف يلبسونها ثوب التوكيد ؟ فنجد هذه العبارة " تنفذ إلى القلوب نفاذاً ربما لم يتهيأ لها إذا كانت في أسلوب التوكيد والتقرير"(٢).

وفي التواصل بين السؤال والجواب بقوله : (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) تقرير للمراد من إظهار الحكمة من وجود سيدنا آدم - عليه السلام- وبيان أن الحكمة من الأفعال التي تصدر عنه - سبحانه - لا يعلمها إلا هو ، فهو الحكيم الخبير ولا يطلع عليها أحد من أول وهلة حتى ولو كان المطلع الملائكة المقربين .

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٠٢):

(٢) خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، د / محمد محمد أبو موسى ص٨٨، الناشر مكتبة وهبه ، ط٨ : ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م .

وفي هذا التعبير طباق سلب ينضم إلي المؤكدات اللفظية والمعنوية السابقة في تقرير المعنى في الأذهان ، وهذا الطباق يوقف المتلقي على شعور الملائكة تجاه إخبار الله تعالى بخلق آدم - عليه السلام - حتى يتم المعنى ، ويصل المقصود ، ويكتمل المشهد ، بل إن هذا الطباق يضع ضوابط ، ويرسم طبيعة علم الله – تعالى – بالمقارنة بعلم غيره من الخلق حتى ولو كان الملائكة المقربين .

ثم يأتي بعد ذلك بيان لمدى تكريم الله لآدم دون غيره ، بما خصه الله من كمال التعليم بقوله : (وَعَلَّمَءَادَمَ الأسمآء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الملائكة فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَآءِ هؤلاء إِن كُنْتُمْ صادقين * قَالُواْ سبحانك لاَ عِلْمَ لَنَآ إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنْتَ العليم الحكيم * قَالَ يَآءَادَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِي أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ)

وفي توضيح الله للملائكة ما غاب عنهم ، والتوضيح يكتنفه تعجيز ، وذلك على نفس طريقتهم ، وعلى منهجم ومنوالهم بالمقارنة بينهم وبين ما يستطيع عليه آدم - عليه السلام - وبهذا يكون في توجيه السؤال للملائكة وآدم - عليه السلام - وإخبار أحدهما وهو آدم ، وعجز الآخر وهي الملائكة ، تأكيد لما في علم الله ، وإظهار لما غاب عن الملائكة من الحكمة في خلق آدم - عليه السلام - .

كما أن في توجيه السؤال للطرفين إظهارا لبيان خصائص كل واحد منهما في مكانه فمكانة الملائكة مختصة بخصائص خلق مكانهم في السماء ، ومكانة سيدنا آدم مختصة بخلق مكانه في الأرض ، وبهذا يزول التعجب والدهشة للملائكة ؛ لأنهم في بداية الأمر لم يعرفوا الحكمة من خلق آدم ، وإقرارهم بالعجز أمام حكمة الله - تعالى -في إيجاد الأشياء (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

وقولهم : (سبحانك) يدل على استعظامهم فعله ، وتعجبهم منه ، ف " لفظ سبحان إذا تقدم الخبر استلزم معني استعظام ما يذكر بعده استلزاماً بلاغياً"(١)، وأسلوب القصر في قوله : (لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا) توكيد ينضم إلى

(١) الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية ص٣٨٧

المؤكدات السابقة؛ لكي تكتمل الصورة ، وتلتحم أجزاؤها في الذهن، وتقتنع بها النفوس والعقول .

واستعمال هذا الطريق – أعني النفي والاستثناء – من طرق القصر؛ لما له من قوة تتناسب مع قوة الأمر المراد توكيده ، أضف إلى ذلك اندماجه مع هذا السياق المؤكد ؛ فيعطي السياق قوة ، ويزيده وضوحاً وثقة ، ويقطع في النفس أى تردد فلا يدع مجالاً للشك.

وقوله تعالى على لسان الملائكة : { إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } فيه تعليل كأنهم قالوا : ولكونك عالماً بكيفية الأشياء كلها الذي خلقت لما خلقت على هذا النمط الأكمل والوجه الأنفع لا يتصوّر إلا من عالم حكيم .

وفي ابتداء خطابه بندائه باسمه في قوله : (قَالَ يَآءَادَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ) " لِلتَّنْوِيهِ بِشَأْنِ آدَمَ وَإِظْهَارِ اسْمِهِ فِي الْمَلَإِ الْأَعْلَى ؛ حَتَّى ينَال بذلك حُسْنَ السُّمْعَةِ ، مَعَ مَا فِيهِ مِنَ التَّكْرِيمِ عِنْدَ الْآمِرِ ؛ لِأَنَّ شَأْنَ الْآمِرِ وَالْمُخَاطِبِ– بِالْكَسْرِ– إِذَا تَلَطَّفَ مَعَ الْمُخَاطَبِ– بِالْفَتْحِ– أَنْ يَذْكُرَ اسْمَهُ ، وَلَا يَقْتَصِرَ عَلَى ضَمِيرِ الْخِطَابِ ؛ حَتَّى لَا يُسَاوِيَ بِخِطَابِهِ كُلَّ خِطَابٍ"(١)

وفي استعمال النظم لصيغة الإنباء دون الإخبار مع تكرارها بمشتقاتها في قوله : (قَالَ يَآءَادَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ) و" النبأ لَا يكون إِلَّا للإخبار بِمَا لَا يُعلمهُ الْمخبر، وَيجوز أَن يكون الْخَبَر بِمَا يُعلمهُ وَبِمَا لَا يُعلمهُ"(٢) والتعبير بالماضي لفعل الإنباء في قوله : (فَلَمَّآ أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ) ، فيه دلالة على تأكيد هذا التفضيل وهذا التكريم ، وهذا كله مما يتناسب مع المطلع ويتناغى معه ، ويتلاءم مع الإطار العام للسورة الكريمة وهو الإخبار عن الغيب وتكريم الله للإنسان .

ونجد أن النظم القرآني بيَّن أن الإنباء كان لغرض معين ، وموقوتاً بوقت محدد، فعبر ب(لما) التوقيتية لتدل على أنهم حينما أيقنوا بتفضيل آدم وتكريمه

---

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤١٧):

(٢) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري (١ / ٤١) ت : محمد إبراهيم سليم ، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر .

بعلم علمه الله إياه ، جاء الاستفهام في قوله : (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السماوات والأرض وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) وهو استفهام تقريري، وهذا التعقيب بهذا التقرير ، يبعث في النفس شوقاً ، ويجذب الانتباه إلى متابعة الحديث .

وجاء التوكيد في حيز الاستفهام متناسباً مع المقام ؛ لكي يزول أى تردد أو شك قد يتولد في نفوس المخاطبين ؛ ولغرس هذه الثوابت وتقرير هذه الحقائق في نفوس الملائكة ؛ حتى لا تختلط عليهم الأمور؛ فيظنون الخير شرًا، والشر خيرًا.

ولقد اقتضي المقام التوكيد وصياغته بهذه الصياغة اللغوية القوية المؤثرة ؛ ليكون أقوي في تأثيره وأشد حسمًا للأمر، فإن التوكيد في هذا المقام أبلغ وأنسب وأقدر على تحقيق القناعة وتحقيق الغرض.

ولعل السبب في غلبة الأساليب الخبرية على نظوم هذا الموضع هو أن الحال الغالبة عليه هي الشرح والتوضيح والتفصيل؛ لاقتضاء المقام ذلك بما اشتمل عليه من توضيح للمفاهيم، وبيان للحقائق، فناسب ذلك كله الأسلوب الخبري؛ لما يتيحه من إمكانية بسط القول، وتوضيح ما يغمض على السامعين، والدعم بالأساليب المساعدة على توصيل المعنى وبيان المراد ، بينما قلَّ الأسلوب الإنشائي ؛ لأنه كان بمثابة تمهيد، أو إثارة ذهنية تفتح المجال للأسلوب الخبري للتوضيح والتفصيل بما يحقق الهدف ويوضح المطلوب ، فاتخذ النظم من كلا الأسلوبين وسيلة من وسائل الإثارة والتشويق، حيث مهَّد بالاستفهام ، فإذا ذكر الخبر بعد هذه التهيئة استقر في النفس وتمكن في الوجدان .

ومما سبق نجد أن جزيئات الآيات ومقصدها تتلاءم مع مطلعها ، وما جاءت هذه الجزئيات إلا لتكون بمثابة التوضيح والتفصيل لما يكتنفه المطلع من حكم وأسرار .

ثم جاء الالتفات من الغيبة في قوله تعالى : (وإذ قال ربك للملائكة . . .) إلى التكلم في قوله : (وَإِذْ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ . . .) والغرض منه لفت

الانتباه وإثارة الاهتمام ، وإيقاظ النفس عند هذا الجزء المهم من القصة ، فالله - تعالى - بعد أن أعلم الملائكة مكانة آدم ، وأنه جعله خليفة في الأرض ، أمرهم بالسجود له سجود احترام وتقدير لا سجود عبادة اعترافا بفضله واعتذارا عما قالوه في شأنه من قولهم: (أتجعل فيها من يفسد فيها) ولينكشف موقف إبليس تجاه هذا التكريم .

والعطف بالواو من قبيل عطف الْقِصَّةِ عَلَى الْقِصَّةِ. (وَإِعَادَةُ (إِذْ) بَعْدَ حَرْفِ الْعَطْفِ الْمُغْنِي عَنْ إِعَادَةِ ظَرْفِهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ مَقْصُودَةٌ بِذَاتِهَا ؛ لِأَنَّهَا مُتَمَيِّزَةٌ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ الْعَجِيبَةِ ، فَجَاءَتْ عَلَى أُسْلُوبٍ يُؤْذِنُ بِالِاسْتِقْلَالِ ، وَالِاهْتِمَامِ)(١)

وجاءت هذه الجملة متصلة بما قبلها ؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى، فتحقق بينهما ما يعرف بالتوسط بين الكمالين ، وهذا الربط بالواو بين الجملتين يشير إلى أن كل جملة من الجملتين تمثل خيطاً من خيوط هذا النسيج الواحد ، هذا الخيط الذي حمل بين طياته الإخبار عن هذا الحدث الغيبي الذي وقع من قبل .

وإذا كان فعل القول المنسوب إلى الذات العلية في المطلع ينبىء عن حكم وأسرار إلهية ، ومنح ربانية متعلقة بالخالق ، وما حباه للمخلوق من صفات وخصائص مازته عن غيره من المخلوقين ، فالأسلوب الخبري بما يشتمل عليه من فعل القول هنا المنسوب إلى الذات العلية جاء- أيضا- لينبئ عن بعض تلك الحكم والأسرار الإلهية ، ومن هنا جاء متضمنا لذلك الأسلوب الإنشائي حيث صيغة الأمر بقوله : (اسجدوا) والأمر في الأعم الأغلب يأتي متبوعا ببيان سببه ليكون أدعى للامتثال ، ولكن هنا نلحظ أن المقصد لم يعتن ببيان السبب للأمر بالسجود للإشارة إلى أن هذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التأمل والتدبر والتأويل المحوج إلى الفكر الطويل ، لما فيه من الإشارات والتنبيهات ، فكأن حذف السبب الداعي إلى الأمر بالسجود مقصوداً قصداً إلى التهويل على

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٢٠):

المستمع ، ودفعه دفعا إلى النظر فيما وراء الأمر من معنى ومقصد ، كما يمكن القول أن في عدم بيان العلة بالأمر بالسجود يعطي شدة وحزما ، وأن هذا الأمر لا هوادة فيه ، ومن هنا اختار النظم القرآني التعبير بنا الدالة على العظمة في قوله :(قلنا) يقول الطاهر بن عاشور : " وَغُيِّرَ أُسْلُوبُ إِسْنَادِ الْقَوْلِ إِلَى اللَّهِ فَأُتِيَ بِهِ مُسْنَدًا إِلَى ضَمِيرِ الْعَظَمَةِ (وَإِذْ قُلْنا) ، وَأَتَى بِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ مُسْنَدًا إِلَى رَبِّ النَّبِي ، (وَإِذْ قالَ رَبُّكَ) لِلتَّفَنُّنِ ، وَلِأَنَّ الْقَوْلَ هُنَا تَضَمَّنَ أَمْرًا بِفِعْلٍ فِيهِ غَضَاضَةٌ عَلَى الْمَأْمُورِينَ فَنَاسَبَهُ إِظْهَارُ عَظَمَةِ الْآمِرِ، وَأَمَّا القَوْل السَّابِق بِمُجَرَّد إِعْلَامٍ مِنَ اللَّهِ بِمُرَادِهِ لِيُظْهِرَ رَأْيَهُمْ، وَلِقَصْدِ اقْتِرَانِ الِاسْتِشَارَةِ بِمَبْدَأِ تَكْوِينِ الذَّاتِ الْأَوْلَى مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ الْمُحْتَاجِ إِلَى التَّشَاوُرِ، فَنَاسَبَهُ الْإِسْنَادُ إِلَى الْمَوْصُوفِ بِالرُّبُوبِيَّةِ الْمُؤْذِنَةِ بِتَدْبِيرِ شَأْنِ الْمَرْبُوبَيْنِ ، وَأُضِيفَ إِلَى ضَمِيرِ أَشْرَفِ الْمَرْبُوبِينَ ، وَهُوَ النَّبِي - ﷺ - " (١)

ولا شك أن القارئ للأمر بما فيه من أمر شديد الحدة سيقارن بين الأمر ومدى الامتثال به ، فيزداد تطلعا وتشوقا لمعرفة أولاً سر اختصاص آدم - عليه السلام - بهذه الخصوصية ، وثانياً : مدى الامتثال لهذا الأمر تجاه سيدنا آدم- عليه السلام - وهنا يزداد تأثرا وانفعالا بما وقع من أمر قوي متين ، ثم يندفع بطبيعته إلى التفكير فيما سيقع تجاه هذا الأمر ، وليس هذا فحسب ، بل سيحاول جاهدا ومدققا ومحللا عن سبب الامتناع عن هذا الأمر، وباحثا عن الدواعي النفسية التي دعت إلى ذلك ، وهنا يتحقق الغرض الأسمى من المطلع ، وهو تصوير مدى تكريم الله لسيدنا آدم - عليه السلام - من ناحية ، وموقف إبليس تجاه هذا التكريم من ناحية أخرى .

والفاء في قوله : (فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين) تعد بمثابة بداية الانجلاء لما حدث تجاه هذا الأمر بالسجود لآدم - عليه السلام - وفي الاتحاد بين فعل الأمر وجوابه (اسجدوا . فسجدوا) يدل على مدى المبالغة في الامتثال للأمر، والتعظيم للمأمور له بالسجود وهو سيدنا آدم - عليه السلام - كما أن

(١) التحرير والتنوير (١ / ٤٢١):

هناك جناس الاشتقاق بين (اسجدوا ، فسجدوا) ومراعاة النظير بين (أبى واستكبر)، فكل هذه الأساليب تساعد على تجلية المعنى وتوضيحه .

فكأن النظم القرآني يريد أن يقول : أنه لما خصص الله - تعالى - بحكمته البالغة سيدنا آدم أن جعله مسجودا لهم تعظيما لقدره وإظهارا لشأنه ، كان هذا سببا في تلبية الملائكة بالمسارعة إلى السجود ، وهو السبب نفسه الذي جعل إبليس يأبى حسدا ، ويتكبر حقداً حتى وصل إلى كونه من الكافرين .

وَمَعْنَى أَبَى : امْتَنَعَ مِنْ فِعْلِ مَا أُمِرَ بِهِ ، والإباء: شدة الامتناع (١) وَالِاسْتِكْبَارُ: الِاسْتِعْظَامُ لِلنَّفْسِ . . . وأعظم التّكبّر : التّكبّر على الله بالامتناع من قبول الحقّ ، والإذعان له بالعبادة "(٢)

والأفعال الماضية (سجدوا ، أبي ، استكبر ، وكان) جاءت لتفيد تأكيد الوقوع ولتتناسب مع تأكيد المطلع الدال على وقوع الخبر وتتآزر معه لإبراز المراد وتوضيحه حتى يقر في أذهان المتلقين .

وفي وصف إبليس بهذه الأوصاف الثلاثة المتباينة في التعبير (أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين) يجعل الوصف يمتد ويحمل أبعادا أكثر ودلالات أخرى تنبىء عن ما وصلت إليه نفسية إبليس تجاه هذا التكريم مما يثري المعنى ويقويه ، وهذا مما أبرزه المقصد .

وهنا نلحظ في الموضع الأول من سورة البقرة أنه لما كان السياق يدورحول توضيح مكانة سيدنا آدم - عليه السلام - من اختصاص الله له بكونه خليفته في الأرض دون غيره بما حباه الله به من علم علمه إياه ، جاء عرض القرآن لموقف إبليس في سورة البقرة بصورة مجملة جامعة للموقف من أوله لآخره في تدرج متقن ، فالفعل أبى يوحي بالامتناع ، وهذا الامتناع تدرج حتى وصل إلى الاستكبار، وهذا الاستكبار والعناد وصل معه ذروته ، حتى أوصله للكفر -

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى١ /٥٨ ، ت : صفوان عدنان الداودي ، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ

(٢) المرجع السابق (١ / ٦٩٧):

والعياذ بالله - والعطف بين الأوصاف الثلاثة من قبيل عطف المسبب على سببه ، فاستكباره بسبب إبائه الشديد ، وكفره بسبب استبكاره .

والنظم هنا لم يتعرض لمحاجة إبليس، وبيان سبب امتناعه عن السجود لسيدنا آدم -عليه السلام- لأن الموقف لا يتطلب ذلك ، وليس في حاجة إليه كما هو الحال في مواضع أخرى ، وهو ما سيأتي الحديث عنها بمشيئة الله تعالى .

ولقد جاء التعبير عن إباء إبليس هنا بقوله : (أبى واستكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين) وهذا مما يتناسب مع ما في السورة من إجمال للقصة ، كما أن هذا التعبير فيه مناسبة لموقف التكريم الذي يدور حوله سياق الآيات ، ويتناسب مع ما تشعر به في التعبير عن ما وصل إليه إبليس من حقد على ما وصل إليه سيدنا آدم من تكريم ، هذا بالإضافة إلى ما في هذا التعبير من إعذار مسبق لسيدنا آدم عن ما وقع فيه من أكل من الشجرة بسبب عداوة إبليس المتأصلة في نفسه التي أوصلته للكفر - والعياذ بالله -وإذا نظرنا إلى الألفاظ في الآيات نجد أنها يغلب عليها سمة الهدوء واللين في الخطاب والحوار، وهذا يتلاءم مع بداية الإعلام والإخبار بخصائص سيدنا آدم عليه السلام . على وجه الإجمال ، وما حباه الله من تكريم .

ويتكرر لفظ القول الذي بدأ به المطلع ، وامتلأ به المقصد ، وهذا التكرار في كل مرة يكشف عن معان أوسع ، وأسرار أجل وأخفى ، فيجيء قوله تعالى : (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) والواو تعد بمثابة الاستئناف البياني للكلام؛ لأنها تنقل الكلام من الحديث عن إبليس إلى الحديث عن سيدنا آدم - عليه السلام - وتحقق له فضيلة أخرى قائمة بذاتها ، ومكرمة أخرى مستقلة بنفسها ، فالواو هنا تقوم بحكاية مشهد آخر من مشاهد القصة ، ومظهر آخر من مظاهر التكريم .

ولما كانت سورة البقرة تختزل كل ما في القصة من معاني التكريم باعتباره هو المحور الرئيس الذي تقوم عليه كل محاور القصة ، والأنسب للتكريم هو الجمع بين الأكل والسكنى ؛ ولهذا ناسب هذا التكريم التعبير بقوله : (رغدا) ، وقوله : (حَيْثُ شِئْتُمَا) يقول العلامة البقاعي : (ولما كان السياق هنا لمجرد

بيان النعم استعطافا إلى المؤالفة كان عطف الأكل بالواو في قوله : (وَكُلَا مِنْهَا) كافيا في ذلك ، وكان التصريح بالرغد الذي هو أجل من النعم عظيم الموقع . . بخلاف سياق الأعراف فإنه أريد منه مع التذكير بالنعم التعريف بزيادة التمكين ، وأنها لم تمنع من الإخراج تحذيرا للمتمكنين في الأرض المتوسعين في المعايش من إحلال السطوات ، وإنزال المثلات)([1])

ويتوالى الإكرام بما تحققه أساليب الإنشاء بالنداء والأمر بسكنى الجنة هو وزوجته والأمر بالأكل منها حيث شئتما ، والواو الثانية تعطف الأمر الثاني على الأول لما بينهما من تناسب ، ثم تأتي الواو الثالثة في قوله : (وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) لتعد بمثابة التقييد لذلك النعيم .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن كثيرا من العلماء والمفسرين قد أرجعوا السر في عطف الأمر بالأكل على السكنى هنا في سورة البقرة بالواو ، وفي سورة الأعراف بالفاء إلى اختلاف دلالة السكنى في الآيتين ، ففي البقرة السكنى فيها من السكون بمعنى الإقامة فلم يصلح لها إلا الواو ، ولو جاءت الفاء لوجب تأخير الأكل إلى الفراغ من الإقامة ، أما السكنى في الأعراف من المسكن ، فكانت الفاء لأن اتخاذ المسكن لا يستدعي زمنا ممتدا، وزاد في البقرة: (رغدا) لأنه ذكر بلفظ التعظيم، فزاد في الكرامة والنعيم (٢)

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للعلامة البقاعي (١/ ٢٨٤)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة

(٢) ينظر : ودرة التنزيل وغرة التأويل للعلامة الإسكافي / ٢٢٢ دراسة وتحقيق وتعليق: د/محمد مصطفى آيدين ، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي ــ معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م . وغرائب التفسير وعجائب التأويل للكرماني (١/ ١٣٤) ، دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت ، ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ١ /٧٠ ، المحقق: عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض . دار النشر: دار الفضيلة ، والبرهان في علوم القرآن للزركشي ١ /١٢٨ ، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ودار المعرفة، بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م.

ولكن نجد أن العلامة الغرناطي أرجع سر الاختلاف إلى السياق الوارد في السورتين فقال : " أما الوارد في البقرة فقصد به الإخبار والإعلام لرسول الله - ﷺ - بما جرى في قصة آدم- صلوات الله وسلامه عليه - وابتداء خلقه ، وأمر الملائكة بالسجود له وما جرى من إبليس عن السجود ، ثم ما أمر آدم من سكنى الجنة والأكل منها ولم يقصد غير التعريف بذلك من غير ترتيب زمانى أو تحديد غاية فناسبه الواو وليس موضع الفاء، وأما آية الأعراف فمقصودها تعداد نعم الله -جل وتعالى- على آدم وذريته ألا ترى ما تقدمها من قوله تعالى: "ولقد مكناكم فى الأرض " وما اتبع به هذا من ذكر الخلق والتصوير وأمر الملائكة بالسجود لآدم ثم قوله مفردا لإبليس: (اخرج منها مذءوما مدحورا) ثم بعد ذلك أمر آدم - عليه السلام -- بالهبوط متبعاً بالتأنيس له ووصية ذريته فى قوله تعالى: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان) فناسب هذا القصد العطف بالفاء المقتضية الترتيب والواو لا تقتضى ذلك وإنما بابها الجمع حيث لا يراد ترتيب وليس موضع شرط وجزاء فيكون ذلك مسوغاً لدخول الفاء، وإنما ورد هنا لما ذكرته من قصد تجريد التفصيل المحصل لتعداد النعم، ولما اختلف القصدان اختلفت العبارة عنهما، فورد كل على ما يناسب. والله أعلم"(١)

وتأتي الفاء التي تحمل معنى السببية في قوله : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) لتدلل على ما وصل إليه سيدنا آدم - عليه السلام - من تكريم، وما وصل إليه الشيطان من حقد دفين لسيدنا آدم بسبب هذا التكريم ، فقد استعمل النظم الزلل على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل ، حيث صور وقوع سيدنا آدم في المعصية بزلة القدم في الطين ونحوه ؛ ليعكس النظم القرآني أثر الغواية المعنوية في صورة حسية ؛ لتصوير آثرها التي كانت سببا في إخراج سيدنا آدم وزوجه من الجنة .

(١) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل للغرناطي (١/ ٢٨) الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان .

والتعبير بقوله : (فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا) بما فيه من براعة التصوير يتناسب مع السياق بما فيه من إجمال ، وبما فيه من تكريم " حيث خفف المعصية وسماها زلة ولم يذكر ماهية الغواية كما في الأعراف ؛ مراعاة لمقام التكريم" (١) .

وقوله : (فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) بما فيه من الاسم الموصول يدلل على ما وصل إليه سيدنا آدم من تكريم وتنعيم ، كما أن في إيثار النظم لـ (ما) دون (الذي) مناسبة لسياق التكريم ؛ لأن (الذي) أعرف من (ما) (٢) ؛ لأنه لما كان هذا الأمرغير معهود ولا معلوم ، حيث لا يعلمه ولا يدرك كنهه إلا الله ، ناسبه التعبير بـ (ما) دون (الذي) ، وفي استعمال اسم الموصول وصلته إيماء وإشارة إلى علة بناء الخبر وأنه خبر إنما جاء مقصوداً لذاته ، وفي جعل جملة الصلة فعلاً ماضياً (كانا) والتعبير بحرف الظرفية فيه هو الأنسب والأليق لمقام التكريم .

ويأتي فعل القول في الختام بقوله : (قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِماَا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * والذين كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بآياتنآ أولائك أصحاب النار هُمْ فِيهَا خالدون} ليفتح لسيدنا آدم آفاقا أخرى من التكريم بالإنزال إلى الأرض ليكون خليفة لله فيها وليعيدنا الختام إلى المطلع بتحقيق وعد الله بقوله : (إِنِّي جاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) ، بل وليفتح للإنسان بابا من الإعذار مع خالقه لما سيقع فيه من الاستجابة للشيطان ما دام حريصا على هدي الرحمن غير خارج من حد الإسلام ، وكما يقول الشيخ سيد قطب : (خطيئة آدم كانت خطيئة الشخصية، والخلاص منها كان بالتوبة المباشرة في يسر وبساطة، وخطيئة كل ولد من أولاده خطيئة كذلك شخصية، والطريق مفتوح للتوبة في يسر وبساطة.. تصور مريح صريح يحمل كل إنسان

---

(١) ينظر : التعبير القرآني للدكتور / فاضل السامرائي ص ٢٩٧، الناشر دار عمارعمان الطبعة الثامنة ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٢م

(٢) معاني النحو، د / فاضل السامرائي ١ / ١٤٩ ، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر الموصل الطبعة الأولى (بدون تاريخ)

وزره، ويوحي إلى كل إنسان بالجهد والمحاولة وعدم اليأس والقنوط.. «إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ») (١)

ومن هنا تتناسب وتتناسل أساليب المقصد تبعا لتناسب وتناسل المعاني ، وهي تتناسب وتتناسق مع أساليب المطلع ومعانيه .

(١) في ظلال القرآن للشيخ / سيد قطب (١/ ٦١) الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ .

المبحث الثاني : ـ علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق التكريم المشوب بالعتاب .

قال تعالى : { وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فاهبط مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فاخرج إِنَّكَ مِنَ الصاغرين * قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم * ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ * قَالَ اخرج مِنْهَا مَذْءُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ * وَيَآءَادَمُ اسكن أَنتَ وَزَوْجُكَ الجنة فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة فَتَكُونَا مِنَ الظالمين * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشيطان لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هذه الشجرة إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخالدين * وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ الناصحين * فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشجرة بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الجنة وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشجرة وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ الشيطآن لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسرين * قَالَ اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ *}(١)

ـ علاقة المطلع مع بناء السورة الكلي ، وما يكتنفها من جزيئات .

نجد أن قصة آدم في سورة الأعراف جاءت بعد قوله تعالى : (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ } [الأعراف: ١٠]) ونلاحظ أن الفرق واضح بين ما ابتدأت به قصة آدم في البقرة عن ما بدأت به في الأعراف ، فآية الأعراف فيها من العتاب لبني آدم ؛ ولذلك جاءت خاتمتها بقوله : (قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)

---

(١) سورة الأعراف من الآية ١١ ــ ٢٥

ولقد كان أول السورة فيه إنذار لمن أعرض عن ما دعا إليه الكتاب وعصى الله ، فضرب الله مثلا بقصة آدم لأول من عصى الله - وهو الشيطان - لتحذير بني آدم من هذا الشيطان .

ولقد جاءت الواو العاطفة على سابقتها من الحديث عن نعم الله على خلقه ، ومنها التمكين في الأرض ، مع ما يقابلها من قلة الشكر في قوله تعالى : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ . . .) بمثابة الدليل المادي والبرهان العملي على ذلك ، فمع دقة إحكام الله تعالى لخلقه وتحذيره لهم من إبليس بما يحمله من حقد على آدم لما حباه الله به عن سائر المخلوقات إلا أن ذلك قوبل بالانصياع له ، والاستجابة لإغوائه حتى أخرج أدم - عليه السلام - من الجنة .

وهذا السياق يتناسب مع سياق السورة الذي يتحدث عن تقسيم الخلق إلى طائفتين فريق شاكر وفريق جاحد فريق في الجنة وفريق في السعير، فهي تتحدث عن البشرية بجملتها في رحلتها ذهاباً وإياباً ، تتمثل فيها حركة هذه العقيدة في تاريخ البشرية ،ونتائج هذه الحركة في مداها المتطاول من لدن آدم - عليه السلام - إِلَى مُحَمَّد - عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَام -"(١) .

ـ مفردات المطلع وتراكيب نظمه كمقدمة للمقصد .

جاء المطلع بقوله : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين) وفيه بيان لكمال النعمة ، ومجيئها على الوجه الأكمل والأحسن لبني الإنسان ، مع التعرض لما يحول بينه وبين هذا الكمال–وهو الشيطان – ومن هنا جاء التنبيه ثم أعقبه اللوم والعتاب للوقوع فيما نبه عليه وحذر منه الرحمن .

والواو هنا في بداية المطلع بما فيها من معنى العطف تعد بمثابة التدرج الأسلوبي للقرآن في عرض نعم الله على خلقه ، فجعل النظم تكريم الله لسيدنا آدم .– عليه السلام – بمثابة نعمة جديدة على خلقه .

---

(١) ينظر : الظلال ٣/١٢٤٤ .

ومع هذا الترابط العضوي الذي تمثله الواو هنا في تعداد نعم الله على خلقه نجد التراخي الرتبي بثم في تفصيل تلك النعم ، وبيان تدبرها وتأملها مع كل مرحلة يمر بها الإنسان ، وليقف العقل حيالها حتى ينتهي الأمر به إلى أن الله هو الذي خلقه ، وأسبغ عليه نعمه ، ف" ثم توحي باختيار الوقت المناسب لوجود النوع الإنساني ولنشأته نشأة مستقلة في الزمن الذي علم الله أن ظروف الأرض تسمح بالحياة والنمو والترقي لهذا النوع " (١)

وفي تكرار(ثم) عن بداية الحديث عند كل مرحلة من مراحل المنة والنعمة التي تعهدت الإنسان منذ خلقته بالامتنان عليه بحسن صورته ، ثم بعد ذلك بالامتنان عليه بالأمر بالسجود لآدم – عليه السلام– تكريما لشأنه وإظهارا لفضله مما يتناسب مع سياق إقرار تلك النعم ووجوب تدبرها والإقرار بفضلها وشكرها .

وفي التعبير بصيغة التصوير إشعار بالعناية وشدة التكريم " والتصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود ، فالوجود يكون للمادة الخامة ولكن التصوير– بمعنى إعطاء الصورة الإنسانية والخصائص – يكون درجة أرقى من درجات الوجود ، فكأنه قال : إننا لم نمنحكم مجرد الوجود ، ولكن جعلناه وجودا ذا خصائص راقية " (٢)، ف " هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجيب من غريب الصنعة وإسداء النعمة ، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم ، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر" (٣) ، وهذا مما يتوافق مع سياق السورة الذي يركز على هذه النقطة ، ويعرض قصة النشأة ، ويتخذها كذلك نقطة تعقيب للإنذار والتذكير المستمدين مما في مشاهدها وأحداثها. (٤)

---

(١) ينظر : الظلال ٣ / ١٢٦٥
(٢) المرجع السابق ٣ / ١٢٦٤
(٣) المحرر الوجيز (٢ / ٣٧٧)
(٤) ينظر : الظلال ٣ / ١٣٤٧

وفي توجيه الخطاب لبني آدم مع أن المراد به سيدنا آدم – عليه السلام – مجاز مرسل علاقته الكلية ، الغرض منه "هو تأكيد معنى الشكران للنعمة السابغة"(١) ، وفيه إشارة إلى أن الله – تعالى – بعد أن أخبر ملائكته بخلق آدم في الموضع السابق ، جاء بضمير الجمع هنا ل "يشير إلى أن الأصل الأول للخلق آدم، وهو مطمور فيه صفات المخلوقين من ذريته إلى أن تقوم الساعة وراثة ، أي أنه ساعة خلق آدم كان فيه الذرات التي سيأخذ منها الخلق كله هذا عن هذا . . حتى قيام الساعة " (٢)

وإذا كان الخالق للإنسان هو الله ، فهو الذي يعلم ما في طبيعته من خطأ ونسيان، وما فيه من ضعف يدخل منه الشيطان ؛ ولهذا يدرك خطأه ويعفو عنه إذا تاب ورجع إليه وأناب، وهو ما حاول المقصد إبرازه والاستدلال عليه.

ولقد جاء الأمر بالسجود على سبيل الأمر التنجيزي في موضعي سورة البقرة والأعراف متناسبا مع سياق السورتين الذي يدور حول التكريم ، بخلاف ما جاء في سورة الحجر وص حيث عبر بقوله : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجين) ؛ ليتناسب مع الحديث عن مراحل الخلق والتكوين .

وما جاء في سورة الأعراف من قوله : (لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين) حكاية عن إبليس ، وخروجه عن أمر الجماعة بالسجود ، مما يتناسب مع سياق الآيات الذي يدور حول التكريم والعتاب ، وكأن في هذا التعبير- مع ما فيه من فعل الكينونة - تنبيه بدء لعباده على خروج إبليس عن أمر ربه ، وهذا أدعى إلى أخذ مزيد من الحيطة والحذر منه .

ونلحظ هنا أن في عرض موقف إبليس من الأمر بالسجود اقتصر النظم على الإعلام بموقف إبليس وتخلفه عن السجود بقوله : (لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين) وهذا مما يتلاءم مع سياق الأيات الذي يعرض الخلق والتصوير ومدى المنة

---

(١) إعراب القرآن وبيانه ، المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش (٣ / ٣١٠) ، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) ،الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ

(٢) تفسير الشعراوي ١ / ٢٢٠

والنعمة من الله على ذرية آدم ، فالموقف موقف إعلام ، وليس موقف محاجة ومواجهة .

أما بقية السور جاءت بذكر الأوصاف متفرقة ، حيث اختصت كل سورة بالوصف الذي يتلاءم مع طبيعتها وسياقها .

ونلحظ هنا أن المطلع جاء مختلفا عن غيره ، حيث النبرة الصوتية في هذا المطلع جاءت أشد حدة عن غيرها وذلك لما يأتي :

(١) أن كون الخالق والصانع هو الله - عز وجل - ليس في هذا الأمر ملمح جديد ، ولا شيء مستغرب حتى تأتي (إذ) هنا ، فالمقام مقام تقرير للحقائق والاستدلال عليها والتدليل لها ، فناسب معها التأكيد .

(٢) المراد من هذا المطلع هو بيان كمال النعمة مع النص على الحائل دون كمالها على الوجه المبتغى – وهو الشيطان – وهذا يعد من الأمور الغاية في الأهمية للإنسان ، والتي تحتاج إلى وسائل الإقناع والتأثير، وقد اتخذ المطلع من التوكيد بداية ووسيلة لتمكين ذلك في النفس أيما تمكين .

(٣) المطلع يفيد إخباراً بحكم عام مطلق على بني الإنسان ، ثم تأتي بقية الجمل لتثبت هذا الحكم ، وتؤيده بالدليل والبرهان الواقعي والقصصي فميتزج المطلع والمقصد ومن هنا تآزرت المؤكدات المعنوية مع اللفظية ؛ لتكشف عن المعنى المرام وتقره في الأذهان .

(٤) في مجيء المطلع مؤكدا تشويقا لما سيأتي في المقصد إثباتاً أو نفياً ، فيقبل السامع على المقصد إقبال المتلهف المتشوق للإطلاع عليه وعلى مضمونه .

ـ مفردات المقصد ، وتراكيب نظمه ، ومدى مناسبتها للمطلع .

لما بدأ المطلع بقوله : (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا للملائكة اسجدوا لأَدَمَ فسجدوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِّنَ الساجدين) أثار هذا المطلع انتباه السامع لمعرفة سبب هذا المنع ؛ فناسب ذلك أن يوضح المبهم ، ويفصل المجمل ؛ فجاء المقصد ليتقرر المعنى في النفوس ، ويتمكن فيها فضل تمكن .

وهذا الإباء والرفض يعطي المخاطب تشويقا لمعرفة سبب ذلك ، ومن هنا حافظ المقصد على الاستمرار في تلك اليقظة ، وذلك التشويق بهذا الاستفهام في قوله : (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) فمجيء الاستفهام في بداية المقصد اكتسب المقصد به تشويقا إلى ما يذكر بعده ليتمكن في النفس ويستقر، هذا بالإضافة إلى ما في الاستفهام من ترغيب للمخاطب ، واستمالة له لمعرفة الجواب حتى يفكر فيه ويتطلع لمعرفته ، ويزيد هذا الشوق أن هذا التطلع مرتبط بالنشأة الأولى وبمجال التكريم والتفضيل والحائل بين وقوعه على الوجه الأكمل والأمثل .

والاستفهام هنا خرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازى وهو الإنكار، وهذا السؤال الموجه لإبليس بقوله : (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ) باستعماله لأداة النفي (ما) والفعل الماضي (منعك) فيه دلالة على أنه لم يتردد ولو للحظة في تخلفه عن السجود .

ونلحظ هنا زيادة (لا) ، ولكنه لم يُثبتها في سورة (ص) فقال تعالى : (قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ)؛ لأن السؤال في سورة (ص) عن المانع لإبليس من السجود ؛ ولذا ذكرت الآية الكريمة سببين مانعين من السجود هما : الاستكبار والاستعلاء ، أما السؤال في سورة الأعراف فالسؤال عن المحرك النفسي والشعور القلبي المانع من السجود ؛ ولذلك جاء التعبير بالفعل (يمنع) ؛ ليكشف عن مكنون القلب ؛ إذ " المنع : أن تحول بين الرجل ،

وبين الشيء الذي يريده " (١) والحائل بين إبليس ، وبين تخلفه عن السجود هو إحساسه بتميزه عن سيدنا آدم – عليه السلام – ولذلك أجابه بقوله : (قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) ، فزيادة لا هنا " لتأكيد

(١) لسان العرب مادة (منع) ٨ / ٣٤٣ .

معنى النفي في (منعك) ، أو لتضمين (منعك) حملك " (١) ، وبهذا يكون زيادة لا في سورة الأعراف يتآزر مع جو التأكيد المسيطر على السياق ، وهذا التأكيد ب (لا) يتآزر أيضا مع مطلع القصة في السورة وما اشتمل عليه من تأكيد .

وفى التعبير بـ (إذ) التي بمعنى حين دلالة على أن هذا المنع من السجود كان يتعلق بزمن معين ، يقول د / فاضل السامرائي : " ومما حسّن التأكيد واقتضاه في الأعراف قوله: {إِذْ أَمَرْتُكَ} ، ولم يقل مثل ذلك في (ص) بل قال: {مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} فكان الحساب على مخالفة الأمر أشد، واللفظ أعنف وأغلظ " (٢)

وفي التعبير بأفعل التفضيل في قوله :(أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) دلالة على مدى إحساسه بتميزه وتفرده عليه ، فهو بهذا التعبير الذي يكمن فيه مظاهر الفخر والكبرياء والظهور في صورة متفردة عن غيره من الأقران أثبت عن طريق الحجة والبرهان مدى استحقاقه لهذا المكانة دون سيدنا آدم – عليه السلام –.

والتعبير بأفعل التفضيل (خير) يستحضر قوى النفس لمعرفة الجدير بالخيرية ، وأفعل التفضيل جاء مسبوقا بتقديم الضمير الراجع على إبليس بما فيه من دلالة على القصر، وميزة القصر هنا أن يخدم المعنى المراد ويقويه ويتوافق مع السياق ، والتعبير بالضمير (أنا) يوحي بمزيد من الخصوصية ، وهو مما يقوي الأسلوب القصري ويدعمه ، وهذا كله فيه دلالة عن مدى ما أصابه من ناحية ، ومدى إحساسه بصيرورة التكريم على عكس ما كان يتوقع من ناحية أخرى .

---

(١) فتح الرحمن بكشف ما تلبس من القرآن للشيخ أبي يحيى زكريا الأنصاري ، ص ١٧٨ ، ت / د / عبد العزيز الدردير موسى ١٤٠٤ه / ١٩٨٤م .دار الطباعة المحمدية (بدون تاريخ)

(٢) التعبير القرآني ، ص ٣٠٥

والتضاد بين قوله : (من نار) ، وقوله : (من طين) أدل على المراد ، وأوفى بالمقصود ، حيث بين مدى التناقض بينه وبين سيدنا آدم في نفسيته .

ولما كان الشعور المسيطر على إبليس في سورة الأعراف هوالإحساس بالكبروالتعظم على سيدنا آدم – عليه السلام – عومل بما يناقض نفسه ، ويقف ضد جموحها وتطلعها للأعلى ، فقال له : (قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ " وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى جازاه بضد ما أراد، فقد أراد أن يرفع نفسه عن منزلتها ، فجوزى بالهبوط منها إلى ما دونها " (١)

وهذا ما أشار إليه العلامة الغرناطي حينما أرجع إلى أن الأمر بالهبوط في الأعراف جاء متلائما مع السياق لأنه يستدعي ذلك ؛ لأنه قد في ورد فيها قوله تعالى على لسان إبليس : (أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) المشير إلى ارتفاع عنصره وعلو محله ، وهذا مما يناسبه الأمر بالهبوط الذي يحمل معنى النزول إلى أسفل (٢) ولكن نجد العلامة البقاعي صرح بقوله : " وعبر بالهبوط الذي يلزم منه سقوط المنزلة دون الخروج ؛ لأن مقصود هذه السورة الإنذار وهو أدل عليه "(٣)

والفرق بين الهبوط والخروج أن الهُبُوط: الانحدار على سبيل القهر كهبوط الحجر، والهَبُوط بالفتح: المنحدر. يقال: هَبَطْتُ أنا، وهَبَطْتُ غيري، يكون اللازم والمتعدّي على لفظ واحد. قال تعالى: (وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)(٤) ... وإذا استعمل في الإنسان الهُبُوط فعلى سبيل الاستخفاف بخلاف الإنزال (٥)،

(١) تفسير المراغي ، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (٨ / ١١٣) ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر ، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م
(٢) ملاك التأويل ١ / ٤٨٩
(٣) نظم الدرر ٧ / ٣٦٦
(٤) سورة البقرة من الآية ٧٤
(٥) المفردات في غريب القرآن ص: ٨٣٢

أما الخروج عبارَة عَن الِانْفِصَال من مَكَانَهُ الَّذِي هُوَ فِيهِ إِلَى مَكَان قَصده، وَذَلِكَ الْمَكَان تَارَة يكون قَرِيبا، وَتارَة يكون بَعيدا (١)

وهنا نلحظ في المقصد بروز الضمير المعبرعن إبليس والذي يتحرك في السياق ويتنوع من حين إلى حين ، وهذا نراه في ضميري المتكلم أنا والياء البارزين في المقصد ، وهذا كله يتناسب مع ما في نفسيته من نبرة الاعتزاز والكبر.

وتبرز أنواع أخرى من المؤكدات تآزرت مع التوكيد المصدر به المطلع؛ للدلالة على توكيد الخبر وأهميته وأهمية مضمونه ، وللتآزر مع التشويق في المطلع ، ومنها (كثرة الأمر، والنهي) ، وهذه الأساليب – بلا شك – قيود وعوائق تقف في وجه هذا النوع من التعامل بين الإنسان والشيطان ، والقيود لا توضع إلا عند استشعار الخطر، فلما كان الشيطان هو الحائل بين كمال النعمة وتمامها ، كما بيَن المطلع أعلى المقصد من تعداد تلك القيود الموضوعة للشيطان ، وكثرة هذه القيود إعلاء من شأن التحذير ؛ لتمنع هذه المعاملة من جهة ولأخذ الحذر منه من جهة أخرى .

وتبرز عداوة إبليس المتأصلة في نفسه تجاه الإنسان ، ومدى تصميمه على غواية آدم حين طلب أن يصرح له بالإنظار إلى يوم يبعثون ، وأقسم على الغواية في مقابل ذلك التكريم مقسماً ، فقال : (قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ * قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم) ، والتعبير بلفظ الإقعاد إما على سبيل الكناية عن الترصد لهم ومراقبتهم ، وإما على سبيل الاستعارة التمثيلية ، والمعنى " أي أفعل في قطعهم عن الخير فعل المتمكن المقبل بكليته المتأني الذي لا شغل له غير ما أقبل عليه في مدة إمهالك لي بقطعهم عنك وبمنعهم من فعل ما أمرتهم به ، وحملهم على فعل ما نهيتهم عنه، كما يقعد قاطع الطريق على السالبة للخطف" (٢)

---

(١) الكليات ص: ٤٣٢

(٢) نظم الدرر ٧ / ٣٦٨

وهنا نلحظ قمة الإعجاز القرآني في حذف حرف الجر (على) في تعبيره بقوله (لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ المستقيم) فلم يقل: لأقعدن لهم على صراط المستقيم ، مع العلم بأن الفعل قعد من الأفعال اللازمة الذي يتعدى إلى المفعول بغيره لا بنفسه ، ففي عدم استعمال حرف الاستعلاء (على) إشارة إلى أن الشيطان لا يستطيع القعود على صراط الله المستقيم الواضح ، فهو طريق واضح أرفع وأسمى من أن يقعد عليه الشيطان الرجيم ، وفي هذا إشارة إلى ضعف كيده أمام طريق الله المستقيم الذي لو التزم به الإنسان لم يستطيع أن يمتلكه الشيطان ، ومن ثم ففي حذف حرف الاستعلاء (على) بيان أن سلطانه على أتباعه الذين يستطيع أن ينفذ إليهم ويصلهم من الجهات الأربع أو أحدها.

وفي وصفه على لسانه صراط الله بكونه المستقيم ، والكلام وارد على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وجمالها يبرز في ربط الهداية الحسية بالهداية المعنوية ، حيث أثبت أن طريق الله طريق واحد محبب السي رعليه وهو الموصل للمطلوب ، ومن ثم يحبب الهداية المعنوية بإتباع منهج الله ؛ لأنه هو السبيل الوحيد للنجاة

والتعبير في قوله :(ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ) إن أريد به الحقيقة ، فذلك فيه بيان لطرق الشيطان واستحضار لها ، وإن أريد به الكناية ، فهو كناية عن محاولته الدائمة لإغواء الإنسان ، والتعبير المجازي بالكناية هو الأليق والأنسب لما فيه من إبراز لطرق حبائل الشيطان عن طريق إثبات الدعوى بدليلها ، وهذا مما يتآزر مع المؤكدات اللفظية والمعنوية لتوضيح المعنى وتجليته .

ويجيء ذكر الشكر في قوله : (وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ) " تنسيقاً مع ما سبق من مطلع القصة في السورة بقوله : «قَلِيلًا ما تَشْكُرُونَ» .. ولبيان السبب في قلة الشكر، وكشف الدافع الحقيقي الخفي من حيلولة إبليس دونه ، وقعوده

على الطريق إليه! ليستيقظ البشر للعدو الكامن الذي يدفعهم عن الهدى، وليأخذوا حذرهم حين يعرفون من أين هذه الآفة التي لا تجعل أكثرهم شاكرين!" (١).

وهنا نلحظ الإعجاز في صياغة آيات المقصد بصياغة آيات التنبيه والتوجيه ، التنبيه من خلال عرضه لأسلوب الشيطان ومحاولته الدائمة لإغواء الإنسان ، والتوجيه من خلال اختبار آدم وتحمله تبعات اختياره بقوله تعالى : (وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)

ومن هنا فإن ما ورد في سياق سورة الأعراف يتناسب مع سياق الآيات الدال على الجمع بين التكريم والعتاب ، حيث إن سياق السورة قائم على التكريم مع التنبيه على الحائل بين وقوع ذلك التكريم على الوجه الذي يبتغيه الإنسان ، وهو الشيطان .

والفاء هنا في قوله :(فكلا) بما فيها من معنى السببية والترتيب هى الأنسب بالسياق وكأنها تقف عائقا على وصول التكريم على الوجه المبتغى ؛ إذا العطف بين الأكل والسكنى بالفاء من قبيل عطف المسبب على السبب إذ الأكل مسبب عن السكنى ونتيجة له، فليس هناك أكل من الشجرة إلا بعد السكنى، وهذا هو المناسب والملائم لإعلاء جو التنبيه والتحذير الذي بني عليه سياق السورة .

أما سياق سورة البقرة، فليس فيه تنبيه ولا تحذير، وإنما المقصود به حصول الأمرين من التكريم والجمع بينهما، وهما: الأكل والسكنى، فليس الأكل متوقفا على السكنى، ومن ثم فليس هناك ما يستدعي عطف المسبب على السبب(٢).

ويعد هذا الموطن هو أكثر المواطن التي أفاضت في عرض غواية الشيطان لآدم وزوجه حتى وقعا في المعصية ، وفي هذا الموطن صرح إبليس بتصميمه

(١) في ظلال القرآن (٣ / ١٢٦٧):
(٢) راجع ص ٢٤ ، ٢٥ من البحث .

على إغواء آدم وذريته ، وهذا كله مما يتلاءم مع موطن التكريم والحيلولة دونه بالشيطان الرجيم.

ونلحظ في المقصد شيوع حروف الجر التي منها قوله : (من طين ، من نار ، إلى يوم يبعثون ، من المنظرين ، من بين أيديهم ، ومن خلفهم ، وعن أيمانهم ، وعن شمائلهم ، من الظالمين ، إلى حين . .) فالجار والمجرور في كل المواضع السابقة جاء واصفاً لما واقع في حيزه ، وهذه الأوصاف تعد بمثابة القيود التي تتناسب مع جو التشويق والتحذير والتنبيه في المطلع لتلك المعاملة مع الشيطان.

ولما كان التكريم هنا هو الأظهر والأكمل جاءت غواية الشيطان للإنسان مجسدة ومشخصة بقوله : (فوسوس لهما الشيطان) و" الوَسْوَسَة والوَسْواس: الصَّوْتُ الْخَفِيُّ. . . والوَسْوَسَة ، والوِسْوَاس: حَدِيثُ النَّفْسِ ، والوَسْواس، بِالْفَتْحِ: هُوَ الشَّيْطَانُ" (١)

ثم بعد ذلك نجد على الفور نتيجة هذه الوسوسة ظاهرة ومعللة بقوله : (لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا. . .) والنظم القرآني وضح بعد ذلك مدخل الشيطان لآدم وطرقه المعهودة في الوصول لغرضه بقوله : (وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ)

ونجد أيضا تجسيد لفعل آدم ومخالفته أمر ربه بقوله : (فدلاهما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ)، وهو مما يتلاءم مع تجسيد إغواء الشيطان ويتلاءم معه .

وعبارة (فدلاهما) هنا بما فيها من تصوير دقيق يصور لنا آدم على حافة هاوية الحرام ، مما يعني أن الشيطان قد قادهما متبعين خطواته بالتزيين والإغواء حتى وقفا على الهاوية ، فقد " شبه حالهما حين سقطا في المخالفة بعد المحاولات والأيمان التي أكد بها نصحه وإخلاصه ، بحال من يتدلى من

(١) لسان العرب مادة وسس (٦ / ٢٥٤) .

الأعلى إلى الأسفل ، وهو مخدوع مغرور لا يدري أنه يسقط ، وانظر إلى كلمة (دلاهما) وكيف تصف الهبوط من المعارج السابقة إلى المهاوي الدانية ، وانظر إلى كلمة (بغرور) وكيف أضاءت حول تلك الحالة النفسية التي تصحب الاستعراء والمخالفة "(١)

ونلحظ هنا التعبير بلفظ التذوق دون الأكل، " والذوق مُلَابسَة المذوق للفم"(٢) للدلالة على أن مجرد التذوق ، وانتهاك حرمة الأمر ، وكسر الحاجز النفسي للمعصية يعني الوقوع في المحذور ، فاستحقا عتاب ولوم الرحمن .

والتعبير في قوله : (بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) يدلل على إن أمر كشف العورة وإن كان ماديا بصورته ولكنه معنوي بدلالته ، وعلى " ضرورة التستر بعد انكشاف العورة مادية كانت أو معنوية . ومما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الإنسان فطرة من تعريها ولا يتعرى ويتكشف إلا بفساد في هذه الفطرة "(٣)

ويوضح السياق عتاب الله لسيدنا آدم وزوجه بندائه لهما ؛ ليتعلما من هذه التجربة ، ويوضح لهما عداء إبليس ، فيقول : (وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) ، وهنا يأتي الاعتراف بالذنب ، وطلب العفو الذي أفاضت الكلمات في بيانه (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) وهذا كله مما يتلاءم مع بيان استحكام عداء الشيطان لبني الإنسان ، وأن كمال النعمة لا يقف حيالها إلا الشيطان ، وهو ما ركز عليه المطلع وأجمله ، وجاء المقصد ليفصله ويوضحه ، فالآيات موضوعها واحد ومقصدها واحد متحدة مع المطلع في الغاية والهدف .

ثم يجيء الختام بقوله تعالى : (قَالَ اهبطوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأرض مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا

---

(١) التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان د / محمد محمد أبو موسى ، ص ٣٢٠ الناشر : مكتبة وهبة ، ط٤ : ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
(٢) الفروق اللغوية ، (١ / ٩٠.)
(٣) في ظلال القرآن (٣ / ١٢٦٩):

تُخْرَجُونَ) ليبين أن العلاقة بين المطلع والختام هي علاقة المبدأ والانتهاء ، فالمطلع كما يصور كمال النعمة جاء الختام ليصور نهاية الإنسان وأن هذه النعم في الأرض موقوتة بوقت محدد .

المبحث الثالث : ـ علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق بيان سر تكوين آدم ـ عليه السلام ـ

١ ـ قال تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أبى أَن يَكُونَ مَعَ الساجدين * قَالَ يا إبليس مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين * قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إلى يَوْمِ الدين * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأرض وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتبعك مِنَ الغاوين}(١) .

٢ ـ وقال تعالى :{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ استكبر وَكَانَ مِنَ الكافرين * قَالَ ياإبليس مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العالين * قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فاخرج مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لعنتي إلى يَوْمِ الدين * قَالَ رَبِّ فأنظرني إلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ المنظرين * إلى يَوْمِ الوقت المعلوم * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين * قَالَ فالحق والحق أَقُولُ * لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

(١) سورة الحجر من الآيات ٢٨ ــ ٤٢

أَجْمَعِينَ * قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ المتكلفين * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِين) (١)

(١) سورة ص من الآيات ٧١ ــ ٨٨

علاقة المطلع مع بناء السورة الكلي ، وما يكتنفها من جزيئات .

الناظر في مطلع سورة الحجر بقوله : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) ومطلع سورة ص بقوله : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ) يجد أنهما قد تشابها في صدرهما مع معظم مطالع القصة (١) حيث ابتدءا بقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي) واشتركا في بيان أمر مهم لم نلاحظه في المواضع السابقة ، وهو بيان المراحل التي تم فيها خلق آدم (عليه السلام) ، وهي الطين ، ومن صلصال من حمأ مسنون .

والناظر إلى سياق سورة الحجر على جهة العموم يجده هو إبراز طبيعة المكذبين بهذا الدين ودوافعهم الأصيلة للتكذيب ، وتصوير المصير المخوف الذي ينتظر الكافرين المكذبين ، ومن ثم لمحات من قصص إبراهيم ولوط وشعيب وصالح منظور فيها إلى مصائر المكذبين ؛ ولذا يغلب عليها الإنذار، ولكن مع هذا الإنذار والتهويل جاءت السورة لتحمل رسالة قرآنية من الله – تعالى – ليطمئن رسوله والمسلمين أن هذا الدين محفوظ من الله تعالى ، وما على المسلمين إلا الاستمرار في الدعوة والتركيز فيها ، وعدم الانبهار بقوة أعدائهم ، أو الاستشعار بالضعف والوهن أمامهم .

ونجد أن قصة آدم في سورة الحجر جاءت بعد ذكر بعض آيات الله في الكون ، ثم تعرضت لقصة البشرية وأصل الهدى والغواية وأسبابهما الأصيلة ومصير الغاوين في النهاية والمهتدين ، ومن ثم ففي عرض قصة البشرية ، مما يتلاءم مع السياق العام للسورة .

وإذا نظرنا إلى السياق العام لسورة ص نجد أنه يدور حول بيان أن عطاء الله مشروط بالايمان به والالتزام بأوامر الرسالة ، ذاكراً في ذات السياق أمثلة كثيرة من الأنبياء العظام الذين لم يعطهم الله –سبحانه وتعالى – إلا بعد أن أنابوا اليه والتزموا بأوامره ونواهيه .. وهذا الأمر كان المحور الأساس لهذه السورة المباركة.

---

(١) راجع ص ٧ ، ٨ من البحث .

ومن هنا تبدأ الآيات بالتفصيل في الحديث عن تلك الحقائق المشار إليها بذكر شواهد وأمثلة وقصص وبراهين ممن غرهم ما أوتوا من أموال وقوة في مواجهة رسالة النبي - ﷺ - ورد الآيات عليهم بأنهم ليسوا بأقوى من عاد وثمود وقوم لوط ، وكيف أن الله سبحانه دمرهم جميعا مع ما كانوا فيه من قوة ومنعة ومن هذا القصص وتلك النماذج ما حدث من إبليس من استعلاء واستكبار على أمر الله بالسجود لسيدنا آدم - عليه السلام -.

ونجد أن قصة آدم في سورة ص جاءت بعد حديث القرآن على لسان النبي الأعظم - ﷺ - بالقول : بأنه بشر وليس له علم بما يجري بالملأ الأعلى إلا عبر بيان الله له وإنزال الوحي عليه ؛ ولذا جاءت هذه القصة مفصولة عن سابقتها وغير معطوفة عليها بحرف الواو ؛ لتحكي صورة مما يحدث في الملأ الأعلى بقوله تعالى : (إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ)

مفردات المطلع وتراكيب نظمه كمقدمة للمقصد .

إذا نظرنا إلى موضعي سورة الحجر وص باعتبار مراحل القصة نجد أنهما يمثلان مرحلة تالية للمرحلتين السابقتين ، فإذا كانت آيات سورة البقرة تمثل الحكمة من وجود الإنسان وتوضيح ما غاب ؛ وبهذا ناسب معها التعبير بالإيجاد . وموضع سورة الأعراف يمثل الحديث عن تهيئة الكون لاستقبال آدم وتمكينه في الأرض ، وهو ما دل عليه قوله تعالى : (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) (١) ، أما موضع سورة الحجر وسورة ص فإنهما يمثلان مرحلة تالية للمراحل السابقة ، وهي مرحلة الخلق والتكوين على التفصيل والترتيب من طين ، ثم من صلصال من حمأ مسنون ؛ ولذا ناسب معها التعبير في عجز المطلع بقوله : (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) ، وقوله : (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ)

فالسياق هنا " يتناول قضية الخلق ، فالمراد به بدء خلق الإنسان ، بدليل قوله تعالى : (وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ

(١) سورة الأعراف الآية ١٠

مَهِينٍ)([1]) فهو إخبارعن خلق النوع ، وظهوره في الأرض ، فإن أول من خُلق منهم ، ومن خَلْقِ الباقي خُلقَ الجميع " ([2])

والتعبير بلفظة الخلق هو الملائم لسياق الآيات ؛ إذ الخَلْقُ فى كَلام العَرَبِ على وَجْهَيْنِ: الإنشاءُ على مِثالٍ أَبْدَعَه، والآخَرُ: التَّقْدِيرُ، وكُل شَيْءٍ خَلَقه اللَّهُ فَهُوَ مُبْتَدِؤُه عَلَى غيرِ مِثالٍ سُبِقَ إليه (٣)

ومن هنا نجد أن الآيات غلب عليها الإيجاز وليس التطويل أو التفصيل في بيان العلة من الخلق كالموضع الأول ؛ لأن الأمر هنا ليس في حاجة إلى تفصيل إذ الحكمة قد بانت ووضحت في سورة البقرة .

وقوله تعالى : (بشراً) بمثابة التعيين لذلك المخلوق ؛ لأنه ربما تركت آية سورة البقرة هاجساً في النفوس ، وجعلتها تتردد في كيفية هذا المخلوق وذلك الخليفة ، فجاء المفعول به (بشراً) في الآيتين ؛ ليجيب عن ما يشغل النفوس ويتردد في الأفئدة ، ومن هنا كان التنصيص عليه بمثابة التوضيح والتبيين " و(البَشَرُ) : الخَلْقُ، يَقَعُ على الأُنْثَى والذَّكَرِ"(٤)

وقوله تعالى : (بشراً) نكرة ، والنكرة تفيد العموم ، فجاءت جملة (من صلصال . . .) وجملة (من طين . . .) وما بعدهما ؛ لإزالة الإبهام المحيط بتلك النكرة ، وللتعريف بذلك البشر ، و" الصلصال: الطّين اليابس لذى لم تصبه نار ، فإذا نقرته صلّ فسمعت له صلصلة ، وكل شيء له صلصلة أي صوت فهو صلصال ، «مِنْ حَمَإٍ» أي من طين متغير ، و«مسنون» أي

---

(١) سورة السجدة من الآية ٧ ، ٨ .

(٢) قرينة السياق وأثرها في النص القرآني ، ص ١٢٦ .

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي ٥ / ٢٥٣ ت : مجموعة من المحققين ، الناشر: دار الهداية . (بدون تاريخ)

(٤) المرجع السابق (١٠ / ١٨٣) .

مصبوب." (١) ، و" الطِّينُ: التّراب والماء المختلط ، وقد يسمّى بذلك وإن زال عنه قوّة الماء "(٢)

وقد نص المفسرون(٣) على أن الذكر لتلك المواد إنما هي تمثل مراحل خلق الإنسان ، والتي تحدث عنها القرآن في أكثر من موضع ، إلا أننا لا نستطيع أن نغفل دور السياق العام الوارد فيه الآيات في اختياره المختلف للتعبير عن المادة التي خلق منها آدم عليه السلام ، وأنه مما يتناسب مع سياق السورة وجزيئاتها .

ففي سورة الحجر عبر عن ذكر خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون ؛ موافقة لما ذكر قبلها من خلق الإنسان من نفس هذه المادة (٤) ، " كما أنه -تعالى- ذكر حديث الحشر بعد فناء الأجساد وتحللها وتعفنها قبل هذا الآية ، فبين لهم- تعالى-أنه قادر على إعادة هذه الأجساد ؛ لأنه خلقها من مادة قريبة الشبه مما هم عليه ، وهي صلصال منتن متغير طالت مدت مكثه" (٥)

ولقد اختار المولى -عز وجل -التعبير عن خلق آدم بالطين في سورة ص ؛ لأن المقام مقام مقارنة بين خلقته وخلقة إبليس - عليه لعائن الله - فالطين مظلم كثيف سفلي والنار نورانية علوية معاكسة للطين ؛ ولهذا فالنار أفضل من الطين في زعمه ، وَالْمَخْلُوقُ مِنَ الْأَفْضَلِ أَفْضَلُ فَوَجَبَ كَوْنُ إِبْلِيسَ

(١) مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى (١ / ٣٥٠) المحقق: محمد فواد سزگين ، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة الطبعة: ١٣٨١ هـ

(٢) المفردات في غريب القرآن (١ / ٥٣٣):

(٣) ينظر :الكشاف للزمخشري ٢ /٥٧٧ ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ، وروح المعاني ٧ / ٢٧٧، ت : علي عبد الباري عطية ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ، البرهان في علوم القرآن للزركشي ٢ / ٥٥ ، ونظم الدرر ٨/ ٢٣٨ .

(٤) ينظر: التعبير القرآني ص ١٧٣

(٥) تبادل المفردات في متشابه النظم القرآني بين السياق والدلالة ، إعداد / كمال أحمد محمد زين ، ص ١٧٣ رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط

خَيْرًا مِنْ آدَمَ. ([1]) وهذا على منوال ما في سورة الأعراف من مقارنة بقوله : (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

والقارئ لقوله تعالى: (إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ)، وقوله : (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ) يلحظ أنهما جاءا لتحديد وتخصيص نوع خاص من الخلق غير معهود ؛ ليقوم بالمهمة التيَ نُصَّ عليها السياق السابق، وهي (جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً)، وهو ما بينه المقصد ووضحه .

كما أن في تعلق الجار والمجرور في الجملتين (مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) ، وجملة (من طين) باسم الفاعل الراجع إلى العزيز العليم إشارة إلى الدقة العالية في هذا المخلوق ؛ لأنه منسوب إلى الله -تعالى- وهذا بدوره يشير إلى أن أمر هذا المخلوق جد خطير لما يحيط به من تخصيص وتكريم مع أنه مخلوق من طين ، وهذا ما حاول المقصد إبرازه وبيانه .

ـ مفردات المقصد ، وتراكيب نظمه ، ومدى مناسبتها للمطلع .

لما كان المطلع تنطق ألفاظه بالتعيين لذلك المخلوق ، جاءت ألفاظ المقصد وتراكيب نظمه ؛ لتنجسم مع المطلع انسجام السبب مع المسبب ، وترتبط به ارتباط المبين والمفصح عن حال هذا المخلوق ، وما حباه الله به من أسرار في تكوين خلقته مازته عن جميع مخلوقاته تعالى وخصصتته بمزيد من التشريف والتكريم .

فالفاء في قوله : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) تفيد الترتيب ، وفي هذا إشارة إلى ارتباط الخلقة بهذه الكيفية من صلصال ، أو من طين بالتسوية والنفخ في الروح .

وفي العطف بالواو بين (سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) يعد بداية إظهار سر الله الخفي في تكوين الإنسان ، وأنه مركب من هذين النوعين ولا يجوز

(١) ينظر: مفاتيح الغيب للعلامة الرازي ١٤ / ٢٠٨ ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ

انفصالهما.. كما أنه يوحي بالتأكيد والتخصيص على أن كلا منهما له خصائصه .

وفي ورود الفعلين بصيغة الماضي دلالة على أن هذا الأمر مقطوع به ، وفي هذا إظهار لمدى تكريم الله للإنسان واختصاصه بما لم يخص به أحدا غيره وتفرده عما عداه .

وكأن النظم القرآني يريد أن يقول : أنه تعالى لما خلق لإنسان وجعله خليفة الله في الأرض بما أوضعه فيه من أسرار لا يعلمها إلا هو جاءت هاتان الآيتان بقولهما معا (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) ليبينا أن الله تعالى أودع فيه من الاستعداد الجسدي والروحي ما يجعله أهلاَ لذلك .

وقوله : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ} أي: شكلته بالصورة الإنسانية ، والخلقة البشرية)(١) فتسوية الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض وتتميمها صورة إنسان تام ونفخ الروح فيه جعله ذا نفس حية إنسانية (٢)

وضمائر الذاتية هنا الراجعة إلى الذات العلية تشير إلى ما في هذا الخلق من تشريف وتكريم ، وأسلوب الشرط يكسب الكلام تأكيداً ويجيد الربط بين جانبي المعنى ، فأدوات الشرط " تتميز بقوة ربطها بين جانبي المعني ، شرطه وجزائه وما يحيط بذلك من متعلقات"(٣) أضف إلى ذلك كونه وسيلة من وسائل الإثارة والتشويق تدفع المتلقي إلى متابعة الشرط والتركيز فيه والوقوف على متعلقاته لمعرفة الجزاء المترتب على الشرط ، فإذا ذكر الجزاء بعد هذه الإثارة رسخ في النفس وتمكن في القلب ، كما أنه يدفع المخاطب إلى ما سيجيء بعده من أوامر للعزيز العليم تجاه هذا المخلوق ، ويدفع المتلقي إلى متابعة الحديث ، ومن ثَمَّ

(١) اللباب في علوم الكتاب المؤلف: أبو حفص سراج الدين عادل الحنبلي النعماني (٤٥٥/١١) ، ت : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م

(٢) ينظر : مفردات الراغب ٣٦٩

(٣) من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ، د / فتحية فرج العقدة ، ص١٣١ ط الأمانة ١٤١٤هـ ١٩٩٣ م

تجيء الفاء الثانية التي تفيد الترتيب والتعقيب في قوله : (فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) بما فيها من تشخيص للمراد يرسم حركة السجود المراده وما يستوجبه من الالتزام بنوع خاص من السجود ، وموصوف على وفق ما أراده الله ، هذا بالإضافة إلى أن حرف الفاء يجعلها مرتبطة بالأمر زمانا ومكانا في نفس اللحظة التي صدر فيها الأمر، فالأمر هنا ليس فيه مجال للسؤال .

والتعبير بضمير الجمع (فقعوا) ليكون الأمر أشبه بالإعلان العام للجميع غير محصور في فئة دون فئة ؛ مما يستدعي وجوب الالتزام بهذا الأمر للجميع .

والأمر بقوله : (فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) يحمل من التفضيل والتكريم لذلك المخلوق الكثير ؛ لأن الجملة جعلت الأمر على الفور، هذا بالإضافة إلى ما في اللام من إفهام لمعنى التخصيص والانحصار ، فالسجود لا يكون إلا لهذا المخلوق ، ومنحصرا له عما سواه.

والتعبير بقوله : (فقعوا) في هذا السياق بما يعطيه من دلالة زائدة على معنى الانكباب الفوري من دلالة الفعل (اسجدوا) يتناسب مع حال الملائكة ، ومع حال المسجود له ، لأنه بهذه اللفظة بما فيه من دلالة تقرع الآذان عند سماعها كأنه يريد أن ينبههم إلى شيء مهم وحدث جديد يجعلهم ينتبهون إليه، كما أنه يتناسب مع حال المخلوق وما أودعه الله فيه من خصائص وأسرار مازته عن جميع الخلق .

وكأن النظم القرآني في سورتي الحجر وص جاء بقوله : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) ليبين أن الله - تعالى- أودع في هذا المخلوق من الاستعداد الجسدي والروحي ما يجعله أهلاً لذلك التكريم، هذا بالإضافة إلى ما فيهما من بيان لقدرة الله وعظيم صنعته لهذه المخلوق، فكل هذا تلاءم معه التعبير بلفظ (فقعوا) لما في هذا الانكباب بهذه الكيفية من تعظيم للخالق وتكريم للمخلوق.

وفي مجيء هذا الأمر بتلك الصيغة القوية بعد بيان صفة خلقه فيه إشارة واضحة إلى أن السياق الداخلي للمقصد والآيات سياق شدة ، وصرامة ، وحزم..

كما أن في تقديم صفات هذا المخلوق قبل مجيء الأمر بالسجود له بمثابة العلة في وجود هذا الأمر ، فدائما ما يكون الأمر ، ثم تجيء العلة فيه بعده ؛ ليكون هذا أدعى للامتثال ، ولكن في تقديم العلة ومجيء الأمر بعدها إشارة إلى أن المبدأ العام الذي يريد أن يقرره المقصد أن الأمر بالسجود لذلك المخلوق مع ما يصحبه السجود له من تشريف وتكريم أمر مفروض فرضا سواء اطلع المأمور على مميزات هذا المخلوق أم لم يطلع عليها ، فالأمر لا مجال فيه للاختيار ، ومن هنا جاءت بقية جزيئات الآيات في المقصد لتبين حال المأمورين بهذا السجود وموقفهم تجاه هذا التكريم .

ولقد جاءت التلبية من الملائكة على الفور في قوله : (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) ، لتقع الموافقة بين الأمر وجوابه ، فالاسم المجموع المعرف بالألف واللام يوجب استيعاب الجنس واستغراقه ، فسجود الملائكة يقتضى جميع الملائكة . والاستثناء في قوله تعالى: (إلا إبليس) يعد احتراسا من قوله: (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) فإن هذا الاستثناء لو لم يذكر لفظه ؛ " لاحتمل أن يكون في الملائكة من لم يسجد ، فيتأسى به إبليس ولا يكون منفردا بهذه الكبيرة ، ولكن بهذا الاستثناء تعظم كبيرة إبليس ؛ لكونه فارق جميع الملأ الأعلى وخرق إجماع الملائكة ، فيستحق أن يفرد بهذا اللعن إلى آخر الأبد "(١)

وهنا يطرح العقل سؤالا يأتي عفواً لماذا هذا الإباء ومخالفة الجميع مع أن الآمر هو العزيز العليم ؟ ومن ثم يعيدنا المقصد إلى المطلع ، والقضية التي أثارها بما فيه من ألفاظ وتراكيب ، وهي هل هذا الإباء لذلك اللعين هو الأمر بالسجود ذاته ؟ أم لكون هذا المخلوق مخلوقا من طين ؟ وهذا ما عكفت بقية جزيئات المقصد وألفاظه على إيضاحه وبيانه .

وهنا نلحظ أن في عرض النظم القرآني لموقف إبليس من السجود في سورة الحجر إنما جاء كاشفا عن مكنون نفس إبليس ، وموضحا لسبب رفضه السجود لسيدنا آدم والمراحل التي خلق منها سيدنا آدم ، فالحديث في سورة

(١) إعراب القرآن وبيانه (٥ / ٢٤٢):

الحجر قائم على ما حبا الله به سيدنا آدم من تكريم في الخلقة ، وما أعقبه من أمر للملأ الأعلى بالسجود له ، ومن هنا اقتصر النظم على بيان إباء إبليس السجود لهذا المخلوق ، وبيان شناعة موقفه من هذا الأمر ، وبيان شدة رفضه بالتعبير بقوله : (أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) والإباء شدة الامتناع ، وذلك لأن الإباء هو الرفضُ بشدة ، والامتناع التام عن القيام بالشئ المطلوب فعله ، أما الرفض : تركُكَ الشيءَ. تَقُولُ: رَفَضَني فَرَفَضْتُه، رَفَضْتُ الشيءَ أَرْفُضُه وأَرفِضُه رَفْضاً ورَفَضاً: تركتُه وفَرَّقْتُه ، مع إمكانية قبوله له بعد إقناع(١) فالله تعالى لم يقل :(إلا إبليس رفض) لأن إبليس لم يرفض مجرد الرفض ، بل هو كما قال بعد ذلك : (لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) ، إذ أن فعل الكينونة المنفى ، وبعده لام الجحود تدل على أنه يريد أن يقول : لو بقيت ما بقيت وأمرتُ ما أمرت ، فلن أسجد لهذا المخلوق ؛ ولهذا لم يأت جوابه بما يفيد الامتناع فقط عن السجود لهذا المخلوق ، ولم يقتصر في جوابه على بيان مادة الخلق فقط ، وإنما عنى الموقف هنا بتصوير حاله من هذا الأمر.

أما في سورة ص فعبر عن إباء إبليس السجود بقوله : (إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) ؛ لأن الموقف تظهر فيه مواضع الاستكبار منه ، ويدلل عليه بعقده مقارنة بين خلقته وخلقة سيدنا آدم - عليه السلام - بقوله : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) ، فالموقف في سورة ص يستدعي الاستكبار، كما أن في هذا الموضع ظهرت ميزة أخرى لسيدنا آدم لم تظهر في سورة الحجر بقوله تعالى : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) " فنسبة خلقه ـ عليه السلام - إلى اليد للتشريف بالاختصاص ، كما قال : (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي) وتثنية اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه وصنعه ، فإن الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل كقوله تعالى : (لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) ، وكقوله: (مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا)(٢) ، و

(١) ينظر : لسان العرب مادة رفض (٧ / ١٥٦)

(٢) سورة يس من الآية ٧١

قيل: المراد باليد القدرة ، والتثنية لمجرد التأكيد كقوله: (ثُمَّ ارْجِعِ الْبصرَ كَرَّتَيْنِ)(١)"(٢)

وإذا كان المطلع يشير إلى تكوين سيدنا آدم في خلقته ، فالمقصد يشير إلى مظهرين للملائكة ولإبليس تجاه هذه الخلقة وذلك التكوين ، أما بالنسبة للملائكة فالمظهر يشير إليه قوله : (فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ) وهو يصور حركتهم في السجود ، وما فيه من دلالة على أنهم نظروا إلى سيدنا آدم على أنه جسم روحاني ، وهذا مما يشير إلى تصحيح الأفهام لهم بالنسبة لسيدنا آدم ؛ لأنهم بقولهم : (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) قد نظروا إليه على أنه جسم وليس فيه جانب الروح ، ولكن لما نصت الآيات على جانب الروح بقولها : (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي) ظهرت لهم الميزة في آدم وأنه جمع بين الجسم والروح ؛ ولهذا استحق الخلافة في الأرض ؛ وكان هذا سببا في سجدوهم له دون تفكير فضلا عن ما في السجود من أمر للعزيز الحكيم .

أما عن إبليس فالمظهر يشير إليه قوله : (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) حيث يصور إباء إبليس السجود لذلك المخلوق ، ويصور ما في نفس إبليس تجاه هذا المخلوق، وأنه نظر إليه على أنه جسد مخلوق من طين، وغفل عن ما فيه من جانب الروح ، وهو ما دل عليه قوله في سورة الحجر : (قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) ، وقوله في سورة ص : (أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) وهذا مما يتوافق مع طبيعته وخلقته التي تتعامل مع ابن آدم من هذا المنطلق ، وتستغل فيه جانب الجسد على جانب الروح لتغويه .

وتسبغ الأفعال المصورة لذلك مع اختلافها على هذه المظاهر جميعا تقريرا وتأكيدا ومبالغة تستمد من الأفعال الماضية بدلالتها على التحقيق والثبوت ،

---

(١) سورة الملك من الآية ٣

(٢) ينظر : التحرير والتنوير ٦٨/٢٣ .

وتسبغ عليها كذلك تجددا وحدوثا من الأفعال المضارعة بدلالتها على التجدد والحدوث .

والسؤال في سورة الحجر بقوله : (قَالَ يا إبليس مَالَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ الساجدين) سؤال عن السبب الداعي عن تخلفه عن الجماعة ، وهو ما أوضحه التعبير بحرف المعية (مع) وهنا نلحظ مدى حرص المولى تعالى على رجوع إبليس عن هذه المخالفة بحرف الحض : (مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ) ، وكأن الله تعالى لا يرضى له هذا الأمر ، فالسؤال في سورة الحجر يمثل مرحلة سابقة للسؤال في سورة ص ، ومن هنا جاءت الإجابة من إبليس بقوله : (لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ) للتوافق مع ما في المطلع من ألفاظ ، وأنه نظر إلى سيدنا آدم على أنه مخلوق من تلك المراحل ، ولم ينظر إلى الجانب الروحاني فيه .

أما السؤال في سورة ص بقوله : (مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ) سؤال عن المحرك القلبي لهذا الامتناع من السجود إلى ما خلقه الله بعنايته وكرمه ، ومن هنا جاء الاستفهام ؛ ليكشف عن هذا المكنون النفسي بقوله : (أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ) ، ومن هنا جاءت الإجابة من إبليس ؛ لتشكف عن هذا المكنون النفسي على لسانه بقوله : (قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ) فهو بهذا التعبير الذي يكمن فيه مظاهر الفخر والكبرياء والظهور في صورة متفردة عن غيره من الأقران أثبت عن طريق الحجة والبرهان مدى استحقاقه لهذه المكانة دون سيدنا آدم عليه السلام .

ولما نص المطلع في سورتي الحجر وص على نوع الخلق لسيدنا آدم – عليه السلام – ركز المقصد وجاء متشاكلا مع المطلع في الحكاية عن بيان سبب إباءه هو الخلق والتكوين ، ومن ثمَ جعلت الآيات جزاء هذا الإباء هو الخروج واللعن ، ولم تبالغ في العقوبة كما في سورة الأعراف ، وجاء التعبير عن طرد إبليس في السورتين الحجر وص بقوله : (فَاخْرُجْ مِنْهَا) ، وتعليله بقوله : (فَإِنَّكَ رَجِيمٌ)، هذا بخلاف ما جاء في سورة الأعراف فقد جاء ب(فَاهْبِطْ مِنْهَا)، وتعليله ب (إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ)، فالآيتان هنا الغرض منهما الأساسي هو الحكاية عن الخلقة ،

وهي خلقته من طين ، ومن صلصال من حمأ مسنون ، وعن إباء إبليس للسجود لهذا المخلوق بهذه الكيفية .

ولقد علل العلامة الكرماني السر في مجيء اللعنة معرفة بأل في الحجر ومضافة إلى ياء المتكلم في ص بقوله : " (قوله : (وإن عليك اللعنة) قال ذلك بتعريف الجنس ليناسب ما قبله من التعبير بالجنس في قوله : (ولقد خلقنا الإنسان) ، (الجان خلقناه) و (فسجد الملائكة) ، وقال في ص : (وإن عليك لعنتي) بالإضافة ليناسب ما قبله من قوله: (لما خلقت بيدي)([1])

والسياق العام للآيات في السورتين يشير إلى التناقض العام بين طبيعة الإنسان وطبيعة الجان ، بما حبا الله الإنسان من صفات روحية جعلته يرقى في الصفات الذاتية ، وهذه الصفات الوهبية إن تخلى عنها انحرف بطبيعة الحال إلى الصفات الشيطانية وكان أقرب بصفاته إلى الشيطان وأبعد عن الإنسان ، ومن هنا فإقسام إبليس على قدرته على إغواء الكثير من بني الإنسان ثقة منه في أتباعه من بني الإنسان ؛ لأن هؤلاء ليس بينه وبينهم تناقض ، بل توافق وتشاكل في الطباع ، بتخليهم عن ما حباهم الله به ، وهذا ما ركز عليه إبليس في إقسامه على إغواء الإنسان بقوله : (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

وقوله : (قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) والباء هنا للقسم على الأرجح ، ويجوز أن تكون للسببية على معنى أنه ذكر السبب ، وهي الغواية ، وحذف المسبب ، وهو القسم بالعزة ([2]) ولا تعارض بينهما في المعنى ؛ " إذ إغواء الله للشيطان يتضمن عزته تعالى "([3])

---

(١) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ١٠٨

(٢) ينظر : روح المعاني ٣٣٤/٤ .

(٣) ينظر : الكشاف ٨ / ٩٣ .

ونجد في سورتي الحجر وص قد أطال الكلام بعد الحديث عن إباء إبليس بطلب إبليس الإنظار إلى يوم يبعثون ، وموافقة الله تعالى لطلبه مع ما في ذلك من ابتلاء شديد للإنسان ليميز المخلصين من الهالكين .

وهذا الكلام ما هو إلا نتيجة للمظهرين اللذين خلق منهما الإنسان متمثلا في خلقة سيدنا آدم – عليه السلام – وهما : مظهرا الجسد والروح ؛ لأن من غلب عليه جانب الروح على جانب الجسد تغلب على الشيطان وكان من المخلصين، ومن غلب عليه جانب الجسد على جانب الروح استجاب لإغواء الشيطان فكان من الهالكين ، ومن هنا فهذا التقابل بين الإغواء والإخلاص ما هو إلا نتيجة ومظهرا لما في المطلع من تقابل ، وهذا التقابل في ألفاظ المقصد يتناسب ويتشاكل مع ما في المطلع ، وبهذا تكتمل سلسة التقابلات التي تبرهن وتدلل على مدى البون الشاسع ، والفرق الواضح بين الجسد والروح ، يقول الشيخ سيد قطب : " فإن نقطة التركيز في السياق هي سر التكوين في آدم، وسر الهدى والضلال، وعواملهما الأصيلة في كيان الإنسان.. " (١)

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢١٣٧

المبحث الرابع : ـ علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق بيان قوة المواجهة بين إبليس ، وبني آدم ـ عليه السلام ـ .

قال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } (١)

علاقة المطلع مع بناء السورة الكلي ، وما يكتنفها من جزيئات .

قد ناسب ذكر هذا المقطع من قصة سيدنا آدم سياق سورة الإسراء كاملة، الذي يدور في مجمله حول بعض مواقف التكذيب ، وما يتبعها من هلاك للمكذبين . . كل ذلك بعد أن يعذر الله – سبحانه – إلى الناس فيرسل إليهم الرسل بالتبشير والتحذير، والبيان والتفصيل ، ويجيء في هذا السياق طرف من قصة إبليس ، وإعلانه أنه سيكون حربا على ذرية آدم ، ويعقِب عليه بتخويف البشر من عذاب الله وتذكيرهم بنعمة الله عليهم في تكريم الإنسان ، وما ينتظر الطائعين والعاصين يوم ندعو كل أناس بإمامهم ، فمن أوتي كتابه بيمينه ، فأولئك يقرؤون كتابهم ولا يظلمون فتيلا ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا .

وإذا نظرنا إلى موضع سورة الإسراء نجده أنه جاء بعد تسلية النبي – ﷺ – في تكذيب قومه له في حادث الإسراء والمعراج بتذكيره بأن الله – عز وجل – مطلع على طبائع البشر وخباياهم من الأزل ، وأنه أحاط بها قديماً ، قال تعالى : {وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}(٢) فجاءت

---

(١) سورة الإسراء من الآيات ٦١ ــ ٦٥

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٠

قصة سيدنا آدم بمثابة التسلية للنبي - ﷺ - بما حدث من إبليس مع سيدنا آدم - عليه السلام - فالله سبحانه وتعالى يذكرنا بما وقع من إبليس - الذي هو أعلم الخلق بآيات الله وعظمته - من طغيان مع رؤية الآيات في أول هذا الكون ! ثم ممن اتبعه من ذرية آدم بعد تحقق عداوته ! .

ـ مفردات المطلع وتراكيب نظمه ، كمقدمة للمقصد .

لقد اشتركت سورتا الإسراء والكهف في مطلعهما في بيان حقيقة إبليس تجاه تكريم الله لسيدنا آدم - عليه السلام - بالأمر بالسجود له .

والمطلع هنا بقوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) قد بدأ بقوله : (وإذ) وهي على تقدير : اذكر ، والذكر يقتضي التفصيل والتوضيح للمذكور، وهذا الذكر أعقبه أمر بالسجود ، تبعه جدال وإنكار من المخالف للأمر بالسجود الوارد في حيز الذكر ، فكل هذا يستلزم التفصيل والتوضيح بوجودة متعددة ، وأساليب ممتددة .

وفي بدء المطلع بإذ بما فيها من استحضار للماضي ، وإمعان النظر في الآتي فيه تذكير بما كان من إبليس . ولقد اقترن هذا التذكير للماضي بالقول المحكي عن الذات العلية بما يشتمل عليه من ضمير العظمة والكبرياء ، ثم بني المطلع على بيان تكريم الله لسيدنا آدم - عليه السلام - بالأمر بالسجود له ، فكل هذا كان مقدمة وتمهيدا لما في المقصد من أخبار .

ومن هنا نجد أن المولى - عز وجل - في مطلع الأيات - كما يقول العلامة الرازي - (١) حَكَى عَنْ إِبْلِيسَ نَوْعًا وَاحِدًا مِنَ الْعَمَلِ ، وَنَوْعَيْنِ مِنَ الْقَوْلِ، أَمَّا الْعَمَلُ ، فَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لِآدَمَ ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ) ، وَأَمَّا النَّوْعَانِ مِنَ الْقَوْلِ: فَأَوَّلُهُمَا: قَوْلُهُ: (أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً) ، وَهَذَا اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى الْإِنْكَارِ مَعْنَاهُ أَنَّ أَصْلِي أَشْرَفُ مِنْ أَصْلِهِ ، فَوَجَبَ أَنْ أَكُونَ أَنَا أَشْرَفُ مِنْهُ ، والاستفهام الإنكاري هنا يدل على أن هذا الإنكار متأصل في نفسه

(١) مفاتيح الغيب (٢١ / ٣٦٦):

، حيث إنه بنى عقيدته على عدم السجود ؛ لكونه أفضل من آدم ؛ لأنه مخلوق من طين ، وهذا ما بينه القرآن حينما عرض لموقف إبليس بقوله : (لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) في سورة الحجر ، وقوله : (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين) في سورة ص .

وَالنَّوْعُ الثَّانِي مِنْ كَلَامِهِ : قَوْلُهُ :(أَرَأَيْتَكَ هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ) " ومعنى أرأيت: أتأملت ونحوه ، كأن المخاطِب بها ينبه المخاطب ليستجمع لما ينصه عليه بعد"(١)والاستفهام هنا للتعجب ، والتعبير باسم الإشارة الموضوع للقريب (هذا) يدل على أن إبليس جمع مع الافتخار على سيدنا آدم - عليه السلام- الاحتقار له لكونه خُلق من طين ، وهذا الأسلوب بصورته السابقة يكشف عن ما عليه إبليس من حزن شديد ، وألم نفسي عميق بسبب تفضيل آدم - عليه السلام – عليه .

والكاف في قوله : (أَرَأَيْتَكَ) للخطاب ، وهي تضفي على الخطاب نبرة تأكيد ، ومبالغة في التنبيه ، والكلام بما فيه من نبرة استفهام يوحي أيضا بنبرة تحدى وتمرد لما أمره ربه بالسجود له .

وفي استعمال الرؤية بمعنى الإخبار- كما ذهب العلامة الزمخشري -مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأنها سببه ،" والمعنى: أخبرنى عن هذا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ أى : فضلته، لم كرمته علىّ وأنا خير منه؟ " (٢)

وقد استعمل في توضيح المعني ، وتحديد المطلوب الاسم الموصول في قوله : (هذَا الَّذِي كَرَّمْتَ) واسم الموصول في هذا السياق يوحي بعظم هذا الإكرام وعلو شأنه ، أضف إلى ذلك أن استعمال اسم الموصول هنا يناسب المقام بما يفيده من إيجاز يقتضيه مقام إفصاح إبليس عن ما يدور في خلجاته، ويكنه لسيدنا آدم - عليه السلام -

وقد جاء الأسلوب الإنشائي موجزا ومركزاً ، حيث اقتضي المقام ذلك ؛ لما فيه من دلالة على شدة المصاب وضعف الاحتمال ، فجاء حديثه في المطلع

(١) المحرر الوجيز (٣ / ٤٦٩):
(٢) الكشاف (٢ / ٦٧٧):

جامعا الكثير من المعاني بالقليل من الألفاظ ، مع شدة الإبانة والإفصاح " وليست التعبيرات في الحقيقة إلا مظهرًا للرؤية النفسية ، وانعكاسًا للاستجابات الداخلية ، وهي في كثير من صورها تتخطي حدود الواقع وجموده"(١)

وأسلوب الشرط في قوله : (لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) يشوق السامع إلى الجزاء، ويزيد من تفاعله معه ، ويدفعه للتركيز في الشرط السابق للجزاء، ومن ثم فهو وسيلة من وسائل الإثارة والتشويق، وتمهيد جيد لحديثه، أضف إلى ذلك ما يتميز به أسلوب الشرط من قوة الربط بين المعنى والجزاء ، وما يحيط بذلك من متعلقات (٢)

و" معنى: {أَخَّرْتَنِ} أخَّرت أجلي عن موعده، كأنه يعلم أن الله يجعل لكل نفس منفوسة من إنس أو جنٍّ أجلاً معلوماً، فطلب أنْ يُؤخِّره الله عن أجله، وهذه مبالغة منه في اللدد والعناد، فلم يتوعدهم ويُهدّدهم مدة حياته هو، بل إلى يوم القيامة "(٣)

ويلاحظ أن إبليس استعمل (إن) الشرطية بدلاً من (إذا)، و(إن) تستعمل في الشرط غير المقطوع بوقوعه ؛ للإشارة إلى قلة تحققه من هذا الأمر، وهو التأخير في العمر ليوم القيامة ، وفيه إشارة إلى مدى حرصه عليه والاهتمام به واستدراك جوانب النقص فيه حتى يستطيع أن ينهض بنفسه ، ومن ثمَّ تتحقق فيه المقومات والأدوات لكي يشفي كيده وحقده على آدم وذريته .

وبالنظر إلى معاني لفظة (احتنكن) نجد أنه يمكن حمل الكلام على الحقيقة ، والمعنى : لألقين في أحناكهم حلاوة المعاصي ؛ حتى يستلذوا بها ، ويرغبوا فيها ، ويطلبوها (٤) ويمكن حمل الكلام على الاستعارة التبعية ، باعتبار أن الاحتناك افتعال من الحنك ، من قولهم : حنك الدابة ، واحتنكها إذا جعل في

---

(١) خصائص التراكيب ص٣٣٦.
(٢) من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ، ص١٣١ .
(٣) تفسير الشعراوي (١٤ / ٨٦٦٢):
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص ١١٧ مطبعة المعارف بغداد ١٣٧٥ه / ١٩٥٥م

حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، والمعنى : لأقودنهم إلى المعاصي ، كما تقاد الدابة بحنكها غير ممتنعة على قائدها ، وفيها دلالة على شدة التمكن والاستيلاء والسيطرة (١) وبهذا يكون قد شبه وسوسة الشيطان للإنسان واستيلاءه عليه وتمكنه منه بالدابة التي يحتنكها صاحبها بالحبل فهو يقودها كيف شاء ، بجامع الانقياد والاتباع في كل . وهذا التصوير له وقعه الشديد بما فيه من رسم صورة مستهجنة مضحكة ، بل ومؤلمة للإنسان الذي كرمه ربه والشيطان عدوه الأول الذي حذره ربه منه يجره ويتصرف فيه كيفما يريد ذليلا مطيعا محتقرا بين يديه ، كما تُجر الدابة بيد صاحبها من حنكها إلى حيث مهلكها ، وهذا المعنى الأخير هو الأليق بالسياق باعتبار ما فيه من تصوير لمشهد الانقياد والإتباع .

والاضافة في (ذريته) بإضافة لفظ الذرية إلى الضمير الراجع إلى سيدنا آدم تعكس الحالة النفسية لإبليس وما هو فيه من ألم وحزن وكرب وتوعد لبني الإنسان ، فالإضافة تغنى عن تفصيل يتعذر لضيق المقام عن الإطالة في الكلام، فناسب ذلك أن يشير إلى ما هو فيه في لمحة دالة ، وإيجاز بليغ ، يصيب المقصود ، ويحدد المراد.

وأسلوب الاستثناء في قوله : (إلا قليلا) إنما هو انتقاء جزء من كل ليجعل من ينجو من كيد الشيطان قليلون.

ومن هنا فقد جاء هذا المطلع مبنيا على جزيئات خاصة ، وتراكيب وصياغات مختلفة عن المطالع السابقة ، لأنه بني على توضيح عداوة الشيطان لبني الإنسان بسبب ما فيه من تكريم ، وذلك بالأسلوب الصريح المشتمل على دقة وروعة التصوير لتوضيح مدى قوة تلك العداوة في نفس إبليس اللعين .

ومن ثمَّ فسوق هذا المطلع بتلك الصورة القوية بألفاظها المصورة لتكريم الله للإنسان وتحدى الشيطان لبني الإنسان بسبب هذا التكريم يمهد لما يأتي بعده في المقصد لينبه إلى قوة المواجهة بين الإنسان والشيطان ، وهي الفكرة

(١) ينظر : تلخيص البيان ص ١١٧ .

الرئيسة التي يدور حولها نظم الكلام ، فالنظم يسير خطوة بخطوة وكل خطوة منه تسلمك للأخرى في تسلسل واضح ، وتصعيد للمعاني متقن

ـ مفردات المقصد وتراكيب نظمه ومدى مناسبتها للمطلع .

العلاقة بين المطلع والمقصد هي علاقة الترقي والتسلسل في عرض غواية الشيطان، حتى تصل إلى ذروتها ؛ ومن هنا نجد أن مقصد الآيات بني على التفصيل في عرض تلك الغواية بقوله : (قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا . . .) ، ثم تأتي نهاية الآيات لتمثل عناية الرحمن للمخلصين لعباده ؛ ليتلاءم مع بدء المطلع بما يوحي به من تكريم الله للإنسان واعتلائه على الشيطان منزلة عند الرحمن .

وبلاغة الفصل هنا بين المقصد الذي يحكي مقولة الرحمن ، والمطلع الذي يحكي مقولة الشيطان تكمن في إشعال جذوة فضول المخاطب ، وإثارة فكره ، وشغل نفسه بالبحث عن الإجابة ، فإذا جاءت الإجابة بعد هذه الإثارة استقرت في نفسه ورسخت في ذهنه.

وقد التزم في تصعيد المعاني أسلوب الحوار ، فأصبح السامع ينتقل من معني إلى آخر حتى وصل إلى الهدف المنشود، والغاية المقصودة من الحديث، والحوار ينفي عن السامع الملل ، ويدفع عنه الكسل ، بل يثير شوقه لمعرفة نهاية هذا الحوار، فإذا ما حصلت المعرفة بعد ذلك ثبتت في النفس وتعمقت في الوجدان.

والتعبير في المطلع بنا العظمة الراجعة للذات العلية أفاد بدء على مصدر القول ومنبعه بما يوحي به من قوة وعظمة ، وأن السياق سياق حزم وشدة ، ثم بعد ذلك جاء الأمر المؤذن بالتكريم ، ومن ثم كان المقصد غرضه الأساس هو بيان تبعية الاختيار ، ومن هنا جاء بقوله : (اذْهَبْ) والذهاب هنا ليس من الذهاب للذي هو نقيض المجيء، إنما معناه:امض لشأنك الذي اخترته خذلانا

وتخلية "(١)"وَمَعْنَى صِيغَةِ الْأَمْرِ هُنَا التَّهْدِيدُ كَمَا يُقَالُ: اجْهَدْ جُهْدَكَ فَسَتَرَى مَا يَنْزِلُ بِكَ " (٢)

ولما جاء فعل الشرط ليكون موضحا لهذا الإتباع ، فإن الجزاء جاء موضحا ومؤكدا للجزاء بقوله : (فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا) ، وجاء الجزاء محذرا أشد تحذير بما اشتمل عليه من توكيد ، وبما جعل الجزاء المعد للاثنين واحدا ، بل ووصفه بكونه موفورا .

وإذا كان المطلع يشير إلى أن سبب عداوة الشيطان للإنسان هو تكريم الله لآدم - عليه السلام - فإن المقصد قد صور مدى قوة المواجهة بين إبليس والإنسان من خلال تتابع الأوامر الواحدة تلو الأخرى ، والتي جاءت متدرجة مترقية في الوصف في قوله : (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤)

يقول العلامة الزمخشري " فإن قلت: ما معنى استفزاز إبليس بصوته ، وإجلابه بخيله ورجله ؟ قلت: هو كلام ورد مورد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم ، فصوّت بهم صوتا يستفزهم من أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم" (٣) .

وقوله : (بصوتك) يمكن حمل الكلام فيه على المجاز المرسل الذي علاقته السببية باعتبار أن المراد أصوات المغاني والملاهي ، وجعل ذلك صوتا لإبليس باعتبار أنه الداعي لها والحامل عليها (٤) ، ويمكن حمل الكلام على الكناية باعتبار أن المراد بالصوت الدعاء إلى معصية الله عن طريق الوسوسة ، ويكون قد عبر عن الدعاء بالوسوسة بالصوت ؛ تحقيراً له حتى كأنه لا معنى له كصوت الحمير (٥)

---

(١) الكشاف (٢ / ٦٧٧):
(٢) مفاتيح الغيب (٢١ / ٣٦٨):
(٣) الكشاف ٢ / ٦٧٨
(٤) ينظر : روح البيان ٥ / ١٨٠
(٥) ينظر : روح المعاني ٨ / ١٠٥

وقوله : (بخيلك) يمكن حمله على المجاز المرسل الذي علاقته المحلية باعتبار أن المراد به : فرسان الناس ورجالتهم المتصرفون في الباطل ، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم"(١) ، ويكون قد ذكر المحل وأراد به الحال ، فذكرت ها هنا الخيل وهي المحل ، والمراد بها الحال وهي الفرسان . وقوله : (رجلك) والرجل بكسر الميم فعل بمعنى فاعل ، فهو صفة كحذر بمعنى حاذر يقال : فلان يمشي رجلا أي غير راكب (٢)

وهنا نلحظ مدى براعة النظم القرآني في تعبيره عن أعوان إبليس بالخيل، والرجل ليدلل على كثرتهم ومدى تنوعهم ، وكأنهم في معركة حربية كل واحد منهم منوط به عمل معين ، فمنهم من يعمل بسرعة وقوة ، كالفرسان في المعركة ، ومنهم من يعمل ببطء ، كالرِّجالة التي تناط بها مهمات تختلف عن مهمات الفرسان ، ولكن لا تقل في مهمتها عنها ، فهذا التعبير بما فيه من مجاز، والفعل (اجلب) بما فيه من قوة التصوير، ولفظة (على) بما فيها من دلالة على قوة الاستيلاء والتمكين ، أدعى وأجدر للإنسان وأزجر له أن توقظه وتهيأه وتنبهه لعدوه اللدود الشيطان .

وقوله : (وشاركهم) المراد بها كل معصية يحملهم عليها كالربا ، والمكاسب المحرمة (٣) ، وبهذا لا يمكن حمل الكلام على حقيقته ، وإنما يحمل على أنه سبب في اكتساب الأموال مما لا ينبغي ، وصرفها فيما لا ينبغي ، فبالتالي التعبير بلفظ المشاركة فيه مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأنه الداعي إلى كل ذلك ، وهذا المجاز فيها إهانة لبني الإنسان باستلاب الشيطان منه عقله وشرفه وكرامته وممتلكاته التي حباها الله إياها وكرمه بها .

وفي قوله : (وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا) التفات من الخطاب إلى الغيبة ، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (وما تعدهم إلا غرورا) ولكنه عدل

(١) المحرر الوجيز ٣ / ٤٧٠
(٢) ينظر : روح المعاني ٨ / ١٠٥
(٣) الكشاف (٢ / ٦٧٨)

عن ذلك تهوينا لأمره واستصغارا لأمر الغرور الذي يعدهم به(١) ، وفي نسبة الغرور إلى الوعد مجاز عقلي علاقته الزمانية أو الحالية " وَالْغُرُورُ : تَزْيِينُ الْبَاطِلِ بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ الحق" (٢)

والتعبير بالفعل المضارع الدال على التجدد والاستمرار في قوله : (يعدهم) يدل على تجدد واستمرار ما يصيب الإنسان نتيجة الاستجابة لإغواء الشيطان ، ويشير إلى أنه لا ينفك عنه الابتلاء بشيء منها .

وورود طريق النفي والاستثناء في قوله : (وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) لما له من قوة تتناسب مع قوة الأوامر الموجهة للشيطان ، والمبينة لأدواته تجاه الإنسان ، والتأكيد على تحقيق المقصور عليه وهو الغرور ، هذا بالإضافة إلى الإثارة والتشويق الحاصلين عن طريق تصدير الجملة بالنفي ، وكأنه يريد " أن يقف المخاطب على هذه المعاني ، وأن يحيط بها قبل أن يصل إلى المقصور عليه ؛ لأن النفي قد هيَّأ المخاطب ونبهه ، فأخذ يتطلع ويشتاق إلى معرفة الجزاء والمعاني التي تلقى إلى هذه النفس المهيأة حتى تثبت فيها وتتمكن" (٣).

وبالنظر في سياق الأفعال الخمسة السابقة (اذهب ، واستفزز ، واجلب ، وشاركهم ، وعدهم) يمكن أن نقول : أن الأمر خرج من معنى الإلزام إلى معنى الإمهال المشوب بالتهديد والوعيد ، وأن الأفعال الأربعة التالية للفعل (اذهب) جاءت على سبيل التفصيل والتنويع للفعل اذهب ، وفيها تنويع وتفصيل لهذا الذهاب ، وما يفعله إبليس للإنسان ، وهذا التفصيل والتنويع فيه إبراز لطرق إبليس في التدليس بالإنسان ، وفيها أيضا تدليل عليها وبيان لها ؛ لأجل تنبيه الإنسان إلى عدوه الأول منذ بدء الخلق . فلكل فعل من الأفعال السابقة دلالته

---

(١) ينظر : إعراب القرآن وبيانه ٥ / ٤٦٩

(٢) تفسير البغوي (٣ / ١٤٣) ، المحقق : عبد الرزاق المهدي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ

(٣) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها فى الدراسات البلاغية ص ٨٥.، د/ محمد محمد أبو موسي ط٢ ، مكتبة وهبة ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٩م .

الخاصة به ، وفائدته المستقلة التي تبرهن على مدى عداوة الشيطان للإنسان بسبب كرهه لسيدنا آدم - عليه السلام - وحقده وحسده عليه لما حباه الله تعالى به .

وهنا نلحظ بلاغة التوجيه في قوله تعالى : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك واجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الاموال والاولاد وعدهم..) ففي كل أمر من الأوامر السابقة انتقال إلى معنى آخر بالأمر التالي عليه ، ولكن لم يُقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثاني ، وهذا عند علماء البلاغة يسمى الاستطراد(١) وهو مشعر بامتداد الغرض . . وكل ذلك يدل على خطورة ابليس ، وكثرة إغراءته.

والإضافة بالضمير الراجع إلى الإنسان في قوله (منهم ، عليهم ، وشاركهم ، وعدهم وما يعدهم) تفيد الاستحقاق وتبرز ما يستحقه هذا الإنسان لاستجابته لإغواء الشيطان كما أن هذه الإضافة تجعل الإنسان المبتلي يستحضر صورة هذه الأفعال في ذهنه ، ويتذكر أثرها في قلبه ، ومن ثم يحثه ذلك على الحيولة دون وقوعها ، والرجوع إلى الله ليكون عونا له على التخلص منها .

والتعبير بضمير الغيبة الراجع إليهم مشعر بتقبيح أفعالهم ، وأنهم ارتكبوا أمراً لا يمكن ذكره أو وصفه أو إظهاره والنص عليهم من خلال صلة الموصول ؛ لكونهم ذا أهمية خاصة عنده ، فهم أولياؤه ومحل انتقامه ؛ ولذا أراد تعينهم من خلال صلة الموصول في قوله : (من استطعت منهم . . .)

ولقد كثرت الصور البيانية وتنوعت في هذا السياق ، وتنوع الصورة البيانية وعدم ارتكازها علي جانب واحد ساعد السامع والقارئ علي تصور الأحداث ، ومتابعة المشاهد ومتابعة حركتها وسكونها في وضوح وإيجاز ، وكأن هذه الصور يتفاعل بعضها مع بعض ، ويكمل بعضها بعضاً ، وتؤدي كل منها دورها

---

(١) وهو ضرب من البديع يُظهر الشاعر أنه يذهب لمعنى فيعن له آخر فيأتي به كأنه على غير قصد وعليه يبنى وإليه كان مغزاه (البديع في البديع لابن المعتز (ص: ٣٦) الناشر: دار الجيل ، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

في الوصف ، والتوضيح وإبراز المطلوب . فالصورة البيانية تقرب الصورة لدي السامع ، وتصف له المشهد ، وتجعله يرى المواقف ويحضرها ويحيط بها .

ولكن بعد هذه العداوة والتوعد الشديد في مطلع الآيات بقوله :(لاحتنكن ذريته إلا قليلا) وبعد أن ترك له الأمر على اختياره في المقصد ليفعل بذرية آدم - عليه السلام - ما يستطيع وبشتى أنواع الحيل يأتي الختام في آخر الآيات بقوله : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا) وفي التعبير التفات حيث انتقل السياق من مخاطبة الشيطان إلى خطاب النبي - ﷺ - وفيه مؤانسة للإنسان والتكفل برعايته ، وإرشاده إلى سبيل النجاة من الشيطان بحسن التوكل على الله .

ويتضح من خلال التأمل في علاقة المطلع بخاتمة الآيات في اختيار هذه الخاتمة ، وذلك لكي يقطع على النفس أي توهم لغير المراد ، وليصحح المفاهيم ، ويبرز ويؤكد رحمة الله -عز وجل - بعباده ، وأنه ما ابتلاهم بإغواء الشيطان إلا ليمحص المؤمن من المنافق ، وهنا يزول أى اعتقاد قد يعتقده السامع من الآيات ، أضف إلى ذلك ما يبعثه هذا الختام في نفس المتلقي من الثقة بالله - عز وجل - والاطمئنان في كل ما يجريه -سبحانه وتعالي- عليه من الأقدار .

المبحث الخامس : ـ علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق التنظير بين حال إبليس ، وبني آدم ـ عليه السلام ـ

قال تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) (١)

علاقة المطلع مع بناء السورة الكلي ، وما يكتنفها من جزيئات .

يربط القصص الواردة في سورة الكهف محور واحد ، وهو أنها تجمع الفتن الأربعة في الحياة: فتنة الدين (قصة أهل الكهف) ، وفتنة المال (صاحب الجنتين) وفتنة العلم (موسى عليه السلام مع الخضر) ، وفتنة السلطة (ذو القرنين). ويرد ذكر إبليس في منتصف السورة والتحذير من عاقبة اتخاذه وليا ، وفي ذلك دلالة على أن المحرك الرئيس لتلك الفتن هو الشيطان الذي يزينها للناس.

ولقد جاء المطلع معطوفا على جُمْلَةِ (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ) " بِتَقْدِيرِ: وَاذْكُرْ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ، تَفَنُّنًا لِغَرَضِ الموعظة الَّذِي سيقت لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ، وَهُوَ التَّذْكِيرُ بِعَوَاقِبِ اتِّبَاعِ الْهَوَى ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الصَّالِحَاتِ، وَبِمَدَاحِضِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعُجْبِ وَاحْتِقَارِ الْفَضِيلَةِ ، وَالِابْتِهَاجِ بِالْأَعْرَاضِ الَّتِي لَا تُكْسِبُ أَصْحَابَهَا كَمَالًا نَفْسِيًّا. وَكَمَا وُعِظُوا بِآخِرِ أَيَّامِ الدُّنْيَا ذُكِّرُوا هُنَا بِالْمَوْعِظَةِ بِأَوَّلِ أَيَّامِهَا ، وَهُوَ يَوْمُ خَلْقِ آدَمَ "(٢)

مفردات المطلع وتراكيب نظمه كمقدمة للمقصد .

لقد جاء المطلع هنا بقوله تعالى : { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) مؤكدا لحقائق متقابلة ، وكأنه يقودنا إلى الشيء ونقيضه ، فهؤلاء الملائكة وهم يمثلون العالم العلوي الروحي يستجيبون على الفور لأمر الله لهم بالسجود لآدم في مقابل إبليس الذي فسق عن أمر ربه ، فكان من الجن الذي يمثل العالم السفلي .

---

(١) سورة الكهف الآية ٥٠

(٢) التحرير والتنوير (١٥ / ٣٤٠):

وفي اختيار النظم لتصوير ذلك بالفاء بما فيها من دلالة على السرعة في التنفيذ فيه مناسبة وملائمة لما تضمنه السياق من معنى سرعة التحول والتغيير، هذا بالإضافة إلى ما تضيفه الفاء من معنى السببية ، والمعنى أنه لما أمره ربه بالسجود لآدم - عليه السلام -كان هذا هو السبب الرئيس في سرعة الملائكة بتنفيذ أمر السجود وهو أيضا السبب الرئيس في فسق إبليس وخروجه عن أمر ربه .

وقوله تعالى : (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) فوق أنه يحمل إخباراً عن إبليس إلا أنه يحمل بين طياته تعليلاً لما هو عليه ، ويحمل دلالة خفية على السبب والداعي لما هو آت عنه من أخبار .

فالموضع هنا إنما يريد أن ينقل لنا السبب والنتيجة ، وهذا يعطي مزيداً من الاهتمام بمضمون الكلام ، فالسبب هو : (كَانَ مِنَ الْجِنِّ) ، والنتيجة هي (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) وعلى هذا فجملة (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) أفادت المبالغة في الخروج عن أمر الله ، بالإضافة إلى الدلالة على التأكيد من خلال استعمال صيغة الماضي في الفعل (كان) .

والفعل (كان) إنما أتى ليُعبر عن تجربة معينة دون أدنى إشارة إلى أن المتحدث أو المعبر عنه قد سبق الحديث عنه في مواضع سابقه ، بل جاء في هذا الموضع ؛ ليزيد دلالة أخرى عن سابقيه ، مع كونه مترابطاً في الصورة معها ومكملا لمضامينها ؛ وليثبت اختلاف إبليس عن الملائكة في الجنس والطبع .

وقوله :"(فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) فيه ثلاثة أوجه يجوز أن يكون معناه : خرج عن أمْر رَبِّهِ، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت عن قِشْرِهَا، وقال قطرب: يجوز أن يكون معناه فسق عن رَدِّ أمْرِ رَبِّه ، ومذهب سيبويه والخليل ، أن معنى (فَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) أتاه الفسق لما أمِرَ ، فعصى، فكان سبَبَ فسقِه أمْرُ رَبِّه "(١)

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٣ / ٢٩٤):

وحمل الكلام على المعنى الأول على الاستعارة التبعية أوجز هذه المعاني وأبرزها ، حيث يخرجها في صورة جديدة مبتكرة غير ما تألفها النفس ،" وهذا من الفضيلة الجامعة فيها حيث إنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً ، وتوجب له بعد الفضل فضلاً " (١).

ويلاحظ في الفاء في قوله : (فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) معنى التفريعية ، وهذا التفريع فيه تأكيد للكلام السابق وتوضيح للمعنى وترسيخ له ؛ لأنه يوضح نتيجة هذا الأمر ، ومدى تأثيره عليه .

وعلى هذا فقوله : (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ) جاء ليحمل دلالة قطعية على خروج إبليس عن أمر الله -تعالى- بسبب حسده لآدم - عليه السلام - وأن هذا الخروج عن أمر الله هو السبب في فسقه ، ومن ثمَّ فجاءت الألفاظ جذلة قوية توحي بالطاعة والامتثال بالنسبة للملائكة ، يقابله استثناء وخرروج عن أمر الله بالنسبة لإبليس مما كان سببا في فسقه وفجوره .

ومن ثم ففي بدء المطلع بإذ بما فيها من استحضار للماضي وإمعان النظر في الآتي ، فيه تذكير بما كان من إبليس ، ولقد اقترن هذا التذكير للماضي بالقول المحكي عن الذات العلية ، بما يشتمل عليه ضمير العظمة والكبرياء ، ثم بني المطلع على التقابل والتضاد بين حال إبليس وحال الملائكة تجاه التكريم لسيدنا آدم - عليه السلام - فكل هذا كان مقدمة وتمهيدا لما في المقصد من استفهام يحمل معنى التعجب والإنكار ، ومن بيان لمدى تناقض حال بني الإنسان مع الشيطان ، فهم مع ما يكنه لهم من عداء يكنون له كل ولاء .

ـ مفردات المقصد وتراكيب نظمه ومدى مناسبتها للمطلع .

العلاقة بين المطلع والمقصد علاقة التنظير، فالمطلع تحدث عن أمورغيبية وقعت من إبليس ؛ للتنبيه على مدى عدواته لبني الإنسان ، والمقصد الغرض منه التحذير من اتخاذه وليا من دون الله ، ولقد جاءت ألفاظ المقصد متآزرة مع

(١) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص٤٢ ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة ، ودار مدني بجدة ، الطبعة الأولي ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١م .

المطلع حاسمة قوية حادة موجزة ، بل ومتشابكة معها حتى تكاد لا تستطيع أن تفصل المطلع عن المقصد وتحدد العلاقة بينهما .

والمتأمل لمقصد الآية يلاحظ حرصه - تعالى- على تقرير المعني في نفوس بني الإنسان وترسيخه في قلوبهم ، بما يضفي عليها قوة وفخامة تتناسب مع مطلع الآية ، ويتطلبها المقام .

والاستفهام بقوله تعالى : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) يحمل معنى الإنكار، بل وفيه دلالة على التعجب من وقوع هذا الأمر، "وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: وَتَحْتَ هَذَا الْخِطَابِ نَوْعٌ لَطِيفٌ مِنَ الْعِتَابِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: إِنَّمَا عَادَيْتُ إِبْلِيسَ مِنْ أَجْلِ أَبِيكُمْ وَمِنْ أَجْلِكُمْ، فَكَيْفَ يَحْسُنُ بِكُمْ أَنْ تُوَالُوهُ؟ بَلِ اللَّائِقُ بِكُمْ أَنْ تُعَادُوهُ وَتُخَالِفُوهُ وَلَا تُطَاوِعُوهُ " (١)

والتنويع بين الأسلوب الخبري في المطلع ، والإنشائي في المقصد يعطي الكلام حيوية وقوة تأثير فوق أنه يحمل تلميحاً دقيقاً إلى عدم علمهم بخبايا الأمور، وأن هذه الخبايا التي أطلعهم الله عليها تجعل المتلقي تتداعى لديه الأفكار للوصول إلى السر الأساس والغرض الأصلي من هذا الاستفهام الذي جاء في المقصد .

والناظر في هذا الكلام يرى أنه قائم على المقارنة بين حالين ، حال الإنسان من جهة ، وحال الشيطان من جهة أخرى ، فبدأ كلامه ببراعة استهلال ليس لها نظير ، فلما كان المقام يستدعي حسم القضية بدأ كلامه مؤكداً لحال الشيطان بقوله : (كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)، وقابل هذا بقوله : (أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي) والتعبير بالاتخاذ يوحي بالرضا التام ، والتسليم المطلق لأمر الشيطان، حيث إن في الفعل معنى الاختيار ، فكأن هذا الاتخاذ لإبليس وذريته من دون الله جاءه الإنسان مختارا له ليس مجبرا عليه أو كارها له ، كما أن التعبير بصيغة المفاعلة فيها دلالة على أن هذا الاتخاذ

(١) تفسير ابن كثير (٦ / ٥٣٤): ت / سامي بن محمد سلامة ،الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ م

فيه تكلف للنفس ، ومخالفة للفطرة السوية التي خلقت عليها الإنسانية ، وأن الإنسان وحده هو المسئول عن ذلك ، وهو الذي اختار لنفسه هذا الأمر .

هذا بالإضافة إلى ما في الطباق بين قوله : (أولياء، وعدو) من تصور المعنى (إذ الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذكر ضده)([1]) ولقد التجأ النظم القرآني لأسلوب المقابلة ؛ لأن هذا أبلغ في الوعظ ، وأقوى في الزجر ، وأقوم في الإقناع ، وأوقع في النفس ، وبخاصة حينما يكون هذا الأمر واقعاً لا يستطيع أن ينكره أحد .

ولفظ (ذريته) يحتمل أن يكون على حقيقته ، باعتبار أن المراد به هو ذرية إبليس من صغار الجان ، ويحتمل أن يكون مجازا مرسلا علاقته السببية؛ باعتبار أن المراد به أولياؤه وأتباعه من الإنس (٢)

وانظر كيف بالغ النظم القرآني في تعبيره عن غرابة هذا الاتخاذ للشيطان وليا من دون الله ، حينما عبر بالمصدر في قوله : (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) للمبالغة في إظهار تلك العداوة وزاد من قوة الشعور بالغرابة من هذا الاتخاذ التعبير باللام في (لكم) بما توحي به من معنى التخصيص ، فكأن عداوة إبليس ما جعلت إلا لبني آدم دون غيرهم ، ومع هذا يتخذونه وليا من دون الله .

وهذا القصر فيه بيان لمدى شدة خوفه - تعالى - على ذرية بني آدم ، وتحذيرهم من عدوهم الأول إبليس ، والتعبير بضمير الجمع الراجع إلى بني الإنسان فيه حافز لهم على عدم الانصياع له ، وإشارة إلى الواجب الواقع على عاتقهم من وجوب المحافظة على ما اختصهم الله به من تكريم دون غيرهم .

وبعد هذا التعبير المباشر والصريح بقوله تعالى : (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) يجيء التذييل للآية بما فيه من أسلوب ذم صريح بقوله : (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) ،

---

(١) الصبغ البديعي في اللغة العربية ، تأليف / أحمد إبراهيم موسى ، ص ٤٧١ ، الناشر : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩م

(٢) ينظر : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،المؤلف: ناصر الدين البيضاوي (٣ / ٢٨٤) ،ت / محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

وفيه بيان للجزاء المترتب على اتباع إبليس ، وبيان لحال الذين اتبعوه ، ومن هنا يكون مجيء قوله : (وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ) قبل قوله : (بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) ، فيه تعليل للمراد من بني الإنسان ، وهذا ما يسميه البلاغيون الاستدلال بالتعليل(١)

ومن ثم فأسلوب الذم في ختام الآية تفاعل مع المعنى العام ، وأسهم في تصويره ، والخواتيم أبقي في السمع ، وألصق بالنفس ، كما قال ابن رشيق ؛ لقرب العهد بها، فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها(٢)

---

(١) الاستدلال بالتعليل عرفه بن أبى الإصبع بقوله : "هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع،أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول (ينظر : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لإبن أبي الإصبع المصري ، تقديم وتحقيق / د / حفني محمد شرف ، ١ / ٥٨، الناشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي (بدون تاريخ)

(٢) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ، ت / محمد محيي الدين عبدالحميد ،٢١٧/١ ، الناشر : دار الجيل – بيروت ، ط ٥ : ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

المبحث السادس ـ علاقة مطالع الآيات بمقاصدها في سياق الحديث عن تكريم سيدنا آدم ـ عليه السلام ـ بالعهد ، وإعذاره بالنسيان .

قال تعالى : {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى }(١)

علاقة المطلع مع بناء السورة الكلي ، وما يكتنفها من جزيئات .

لقد بدأ المطلع هنا بالإخبار بما فيه من تأكيد يجمع بين التكريم بالعهد ، والإعذار بالنسيان في قوله : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) ، وهذا السياق يتناسب مع السياق العام لسورة طه ، وهو أن السعادة الأبدية في طاعة الله تعالى ، والتي لو التزم بها الإنسان لاستطاع أن يتحدى وأن يقاوم طبيعته ، وبالتالي لاستطاع الوصول إلى الجنة ؛ ولهذا نجد أن أول آيات السورة ركزت على هذا الأمر وأبرزته بقوله تعالى : (طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى)(٢)

فالسياق العام في سورة طه يركز على الإنسان ، ولكن ليس بصورة عامة كما في الأعراف ، وإنما من حيث قدرته على مواجهة غرائزه الطبعية الذي ينبغي له أن يتحداها ويقف حيالها ؛ حيث يصل إلى هدي الإله ، ومن ثمَّ النجاة .

---

(١) سورة طه الآيات ١١٥ – ١٢٣

(٢) سورة طه الآيات ١ ، ٢ ، ٣

وهنا نجد في السورة الكريمة قصة سيدنا موسى - عليه السلام - الذي استطاع أن يقاوم غريزتي : التملك ، وحب الخلود ، فاكتملت فيه صفات الاستقامة ، ولكن في المقابل نجد فرعون الذي اكتملت فيه أسباب الانحراف حتى أوصلته إلى أبعد ضلاله بسبب غريزتيه الذاتيتين ، وهما : غريزتا التملك ، وحب الخلود ، ثم بعد ذلك سحرة فرعون الذين أصبحوا أدوات في يد ذلك الطاغوت فرعون يحركهم كيفما شاء .

و" في تعلق قصة آدم بما قبلها وجوه منها: أنه لما قال: (كَذلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ ما قَدْ سَبَقَ) ثم عظم شأن القرآن وبالغ فيه ، ذكر القصة إنجازا للوعد ، ومنها : أنه لما قال: (وَصَرَّفْنا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ) أردفه بهذه القصة ؛ ليعلم أن طاعة بني آدم للشيطان أمر قديم وخلة موروثة ، وذلك أنه عهد إلى آدم من قبل هؤلاء الذين صرف لأجلهم الوعيد فنسي ، وترك العهد"([1])

مفردات المطلع وتراكيب نظمه كمقدمة للمقصد .

قد بني المطلع هنا علي الإيجاز والتركيز علي أهم الأحداث ، فقدم ومهَّدَ بهذا المطلع الموجز؛ حتي يوقف السامع علي خطورة الموقف ، ويشد انتباه من أول وهلة لمتابعة هذا الحدث ، والتعرف عليه .

فالمطلع هنا يعد بمثابة المقدمة والأساس الذي ينبىء عن سر استجابة آدم - عليه السلام - للشيطان ونسيانه لعهد ربه .

والمطلع هنا يتشابه مع مطلع سياق سورة الأعراف بما فيه من توكيد ، ولكن التوكيد هنا جاء لأسباب منها : .

(١) أن الخبر في مجمله غريب فأكد بيانا له ؛ لخطر هذا الأمر من جهة ، ولأهميته من جهة أخرى ، كما أن التوكيد فيه مراعاة للأمور الغيبية التي تحتاج إلى ما يؤكدها .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ،المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (٤ / ٥٧٧ ، ٥٧٦) ، المحقق: الشيخ زكريا عميرات ، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ ه

(٢) في التوكيد تنبيه لمدى القوى التي تتجاذب الإنسان ، وتبعده عن الرحمن، وفتح لعينيه على ما ينتظره من صراع مع رغباته المجبولة في خلقته ، والتي يستغلها الشيطان ؛ ومن هنا بدأ المطلع في عرض نتائج تلك الرغبات والشهوات بقوله: (فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا) ، ثم بدأ المقصد في تفصيلاتها .

(٣) التوكيد يتناسب مع ما في المطلع من إجمال يعقبه تفصيل في المقصد ، فكأن النظم القرآني أراد بهذا التوكيد ترسيخ جل هذه الأمور والإحاطة بها بدء حتى تستقر في القلوب من أول وهلة ، ثم يردفها بالتفصيل الموضح والمجيب لما في خلجات النفوس ، ومن ثم يتناغم المطلع والمقصد مع المُطَلع ومقصده .

(٤) المطلع هنا ينبىء عن أصول العلاقة بين الإنسان والرحمن ، فهو يعد بمثابة التعريف بشأن هذه العلاقة ، وهذا يتلاءم معه التأكيد ، ثم يأتي المقصد متآزرا مع التأكيد ببيان طرق الهداية والنجاة بما فيها من تفصيل ووضوح لا يتردد فيه ذو القلب السليم .

(٥) البداية تعد بمثابة الركيزة الأساس للبنيان ، والبداية هنا تمثل عقيدة راسخة لعلاقة الإنسان مع الله ، وعلاقته مع الشيطان ، وهذه العلاقة قد تتضح وتنكشف في مواضع وتختفى في مواضع أخرى ، ولكنها في النهاية علاقة تمثل عقيدة ، وتثمر عبادة ، وهذا ما أجمله المطلع ، وفصله المقصد ، باعتبار أنه يستقي ماءه من جذر المطلع ، ويرتبط به برباط يدق أحيانا ، ويعظم أخرى .

والتأكيد في قوله : (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ) فيه بيان لمدى الحرص الشديد على آدم من الشيطان ، والتعبير بقوله : (من قبل) زيادة في التأكيد ، حيث ينقلنا إلى الزمان الذي كان فيه هذا الموقف والذي حدث فيه هذا العهد ، وذلك النسيان ، وهذا كله يجعل المعنى بأسلوبه ذا مهابة وإجلال ، وقد انعكس هذا على المطلع بما تحمله ناء العظمة من الإجلال والتعظيم والتقديس ، فجاء المطلع قويا حاسما ، وناسبه المقصد في ذلك.

وسر التقييد بالظرف (من قبل) لما فيه من إشارة إلى محو آثار هذا الحدث ، وأنه أمر قد كان ، ومن ثم يأتي الوصف في قوله: (فنسي) ليكشف عن الحالة التي كان عليها سيدنا آدم - عليه السلام - أمام إغواء الشيطان ، وليمثل- أيضا - جانبا من الإعذار له - عليه السلام -.

وتأتي جملة (ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) وهذا يعد جانبا آخر من الإعذار له - عليه السلام - "والمعنى : لم نجد له قوة بالكمال، وانكماشا فى مراعاة الأمر حتى وقعت عليه سمة العصيان بقوله:(وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ) ، ويقال : (لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) : على الإصرار على المخالفة ، ويقال : لم نجد له عزما فى القصد على الخلاف "(١)، ومن هنا جاء المقصد ليدلل على أن هذا النسيان لم يكن مقصودا منه ، ولم يكن شيئا في طبعه ، وإنما مرده إلى الشيطان ، ولقد عكف المقصد على إثبات آثار هذا النسيان من ناحية وليذهب آثارها من ناحية أخرى بما يخفف عن سيدنا آدم ويعذِره .

ـ مفردات المقصد وتراكيب نظمه ومدى مناسبتها للمطلع .

علاقة المطلع بالمقصد هنا تمثل علاقة التفصيل والإجمال ، فإذا كان المطلع يفيد أن الله قد عهد لسيدنا آدم - عليه السلام - ببعض أشياء فنسى سيدنا آدم ذلك العهد ، ولم يصبر على تنفيذه دون تفصيل لهذا العهد ولا لكيفية النسيان ، فجاء المقصد مفصلا لكل ذلك .

والاستئناف بالواو في بداية المقصد بقوله تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى) مع ما فيه من إيجاز دقيق يُجلَي نفسية إبليس وما وصلت إليه من حقد دفين ، ومن هنا اكتفى النظم القرآني بالتعبير بالفعل (أبى) ، ثم تأتي الفاء في قوله : (فقلنا يا آدم . . .) ؛ لتوضح نتيجة هذا الحقد على سيدنا آدم - عليه السلام - ولتنقلنا من شأن إلى شأن ، ومن حال إلى حال .

---

(١) لطائف الإشارات للإمام القشيري (٢ / ٤٨١): ، ت : إبراهيم البسيوني ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ، الطبعة: الثالثة (بدون تاريخ)

وهنا نلحظ أن جميع جمل الآيات جاءت متتابعة لتصور حقيقة واقعية قائمة على سرد الحدث في تتابع مستمر، وذلك من خلال الوصل بين الجمل بالواو تارة ، والفاء تارة أخرى ، ولقد جاءت هذه الجمل معطوفة على بعضها؛ لما بينها من التوسط بين الكمالين ؛ لاتفاقها جميعا في أنها خبرية لفظاً ومعنى .

والفاء في قوله : (فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) رتبت الأحداث ترتيبا يدلنا على ارتباط هذا القول بالزمن الذي أشير إليه في المطلع بقوله : (من قبل) فالفاء تعد بمثابة العرى الوثيق الذي يربط بين القول ، وتعلقه بذلك الزمان ، كما أن الفاء تعد بمثابة التفريع على الإخبار السابق ، والمعنى أنه لما أبى إبليس السجود فرعنا على هذا الوصف أن قلنا لآدم : إن هذا عدو لك ولزوجك .

ونلحظ مع الفاء إن التوكيدية ، وهذا الإشارية ، بالإضافة إلى النداء ، ثم نجد فاءين آخرين يحملان معنى السببية ، ويربطان بين الجملتين ربط العلة بالمعلول في قوله : (فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) ، وهذه الجمل تتشابك وتتشابه مع بعضها في التركيب تشابها وتشابكا يرسخ المعنى ويقويه وينميه.

وفي إسناد الإخراج من الجنة إلى الشيطان من قبيل المجاز المرسل الذي علاقته السببية ؛ لأنه السبب فيه ، والمخرج من الجنة هو الله .

والملاحظ أنه يوجد خطابان موجهان لسيدنا آدم - عليه السلام- الأول :النداء بلفظ (يا آدم) وكأن في هذا النداء تذكيرا لما عُهد إليه ، والتزم به ، والآخر : النهي بقوله :(فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى) ، وهكذا تفاعلَ في العنصر الواحد عاملان من عوامل الحض والتهيئة لاستقبال الأوامر والنواهي القادمة.

ويعد هذان الخطابان - أيضا- بمثابة الدعائم الرئيسةالتي توضح المرتكزات التي تُبنى عليها علاقة الشيطان بالإنسان ، وقد صيغت في قالب الطلب ، ثم صحب هذا كله التأكيد بالنص على عداوة الشيطان له ولزوجته بقوله :(إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ) ، فهذان الخطابان اللذان استهل بهما المقصد مما يقويا جانب

الرحمة ، والإعذار لسيدنا آدم - عليه السلام - بل ويفتحا القلوب لما يأتي بعدهما من أخبار.

ثم جاء بعد ذلك الحديث عن تمام النعمة وكمالها بقوله : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى) ، وهو الركيزة الثانية ، أو السبب الثاني لعداوة الشيطان للإنسان " وَالْمَعْنَى: أَنَّ لَكَ فِيهَا تَمَتُّعًا بِأَنْوَاعِ الْمَعَايِشِ وَتَنَعُّمًا بِأَصْنَافِ النِّعَمِ مِنَ الْمَآكِلِ الشَّهِيَّةِ وَالْمَلَابِسِ الْبَهِيَّةِ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَفَى عَنْهُ الْجُوعَ وَالْعُرْيَ أَفَادَ ثُبُوتَ الشِّبَعِ وَالِاكْتِسَاءِ له، وهكذا قوله: وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيها وَلا تَضْحى فَإِنَّ نَفْيَ الظَّمَأِ يَسْتَلْزِمُ حُصُولَ الرَّيِّ وَوُجُودَ الْمَسْكَنِ الَّذِي يَدْفَعُ عَنْهُ مشقة الضحو. يقال ضحا الرجل يضحو ضَحْوًا إِذَا بَرَزَ لِلشَّمْسِ فَأَصَابَهُ حَرُّهَا، فَذَكَرَ سُبْحَانَهُ هَاهُنَا أَنَّهُ قَدْ كَفَاهُ الِاشْتِغَالَ بِأَمْرِ الْمَعَاشِ وَتَعَبِ الْكَدِّ فِي تَحْصِيلِهِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ أُصُولَ الْمَتَاعِبِ فِي الدُّنْيَا هِيَ تَحْصِيلُ الشِّبَعِ وَالرَّيِّ وَالْكُسْوَةِ وَالْكِنِّ، وَمَا عَدَا هَذِهِ فَفَضَلَاتٌ يُمْكِنُ الْبَقَاءُ بِدُونِهَا، وَهُوَ إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لِآدَمَ أَنَّهُ إِنْ أَطَاعَهُ فَلَهُ فِي الْجَنَّةِ هَذَا كُلُّهُ، وَإِنْ ضَيَّعَ وَصِيَّتَهُ وَلَمْ يَحْفَظْ عَهْدَهُ أَخْرَجَهُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الدنيا، فيحلّ به التعب والنصب بما يَدْفَعُ الْجُوعَ وَالْعُرْيَ وَالظَّمَأَ وَالضَّحْوَ، فَالْمُرَادُ بِالشَّقَاءِ شَقَاءُ الدُّنْيَا كَمَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ لَا شَقَاءُ الْأُخْرَى." (١)

وحين يأتي الحديث عن النعمة وتمامها في وسط هذا الجو المشعر بالترقب والحذر ، فإن الكلام يُضفى عليه نوعا جديدا من التحذيرات التي تستوجب أن تكون عالقة في النفوس بسبب عداوة الشيطان للإنسان .

وفي الآية فيها سرّ بديع من أسرار المعاني وهو الوصل الخفي ، وهو أنه كان الظاهر أن يقال : لا تجوع فيها ولا تظمأ ولا تعرى ولا تضحى ، ووجهه أنه عدل عن المناسبة المكشوفة إلى مناسبة أتم منها وهي أنّ الجوع خلوّ الباطن ، والعرى خلوّ الظاهر، فكأنه قيل : لا يخلو باطنك وظاهرك عما يهمهما، وجمع

(١) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٤٦٠) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ .

بين الظمأ المورث حرارة الباطن والبروز للشمس المورث حرارة الظاهر، فكأنه قيل : لا يؤلمك حرارة الباطن والظاهر، وقيل: إنه عدل عنه تنبيها على أن الأوّلين أعني الشبع والكسوة أصلان وأن الأخيرين متممان فالامتنان على هذا أظهر، ولذا فرق بين القرينتين ، فقيل : إن لك وانك ، وأيضا روعي مناسبة الشبع والكسوة ؛ لأن الأوّل يكسو العظام لحماً ، وأما الظمأ والضحى، فمن واد واحد ، وقيل : إن الغرض تعديد هذه النعم ولو قرن كل بما يشاكله لتوهم المقرونان، نعمة واحدة مع قصد تناسب الفواصل(١)

ثم يتصاعد هنا الحديث عن مداخل الشيطان للإنسان بقوله : (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) وفي تعدية فعل الوسوسة بإلى بما فيها من معنى انتهاء الغاية إيحاء بأن الوسوسة هنا مقصودها وغايتها هو سيدنا آدم - عليه السلام - لإيقاع الغواية به حتى يحقق إبليس انتصاره لنفسه ؛ ولهذا جاء فعل الغواية موقعا عليه فقط ، ثم إنه ناداه باسمه ، بل وفصّل ماهية هذه الوسوسة وكيفيتها بقوله : (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى) ، وهذا مما يتلاءم مع مطلع الآيات الذي يوضح كيفية نسيان سيدنا آدم لعهد الله له ، وتحذيره تحذيرا صريحا ومقصورا عليه من الشيطان ، هذا بخلاف ما جاء في سورة الأعرف بقوله : (فوسوس لهما الشيطان) حيث أن فعل الوسوسة جاء معدى باللام ، وموقعا عليه وعلى زوجته ؛ لأن الحديث عام عن عداوة إبليس لبني الإنسان ، والمعنى أن وسوسة الشيطان كانت لأجلهما ، كما أن التثنية في الأعراف بقوله : (لهما) جاء متلائما مع سياق الآيات الذي يتحدث عنهما بقوله : (فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ، قال العلامة الزمخشري : " فإن قلت كيف عدى وسوس تارة باللام في قوله : (فوسوس لهما الشيطان) وأخرى بإلى ؟ قلت : وسوس له معناه لأجله ، ومعنى وسوس إليه أنهى إليه الوسوسة كقوله : حدّث إليه وأسرّ إليه " (٢)

(١) ينظر : حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي (٦/ ٢٢٩) دار النشر: دار صادر – بيروت.
(٢) الكشاف ٣ / ٩٠

ثم تعاود الآيات لتوضح كيفية استجابة سيدنا آدم للشيطان بقوله : (فَأَكَلا مِنْها فَبَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وَطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى ، ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدى) ، " فالفاء تَفْرِيعٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ فَعَمِلَ آدَمُ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ فَأَكَلَ مِنَ الشَّجَرَةِ وَأَكَلَتْ حَوَّاءُ مَعَهُ"(١)

والتعبير بالأكل هنا يتلاءم مع المطلع بما فيه من دلالة على المخالفة لما عهد له ربه به ولم يجد له عزما عليه ، بخلاف ما صرح به في سورة الأعراف من أنهما – آدم – عليه السلام – وحواء لم يأكلا : أي لم يستمرا في المعصية ، ولكن ذاقا، فقال : ﴿فلما ذاقا الشجرة . . . ﴾ .

كما أن التعبير بالعصيان في قوله : (وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى) يثبت آثار النسيان الذي أشار إليه المطلع " فإطلاق اسم المعصية على الزلة فى هذه الآية مجاز ؛ لأن الأنبياء - عليهم السلام - معصومون من الكبائر والصغائر لا من الزلات "(٢) ، "وفي وصفه - عليه السلام- بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لأولاده عن أمثالها"(٣) .

ثم يجيء قوله : (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ؛ ليتلاءم مع ما في المطلع من جوانب الإعذار وليشير إلى أن الله- سبحانه - قد تجاوز لآدم هذا عن فعلته تلك ، وليقرر أن الأمر كله مرده لله - تعالى -فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، وأن الشقاء في ترك منهج الله ، والمعنى : " اصطفاه وقرّبه إليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها، وفي التعرُّض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره مزيد تشريف له عليه السلام "(٤)

---

(١) التحرير والتنوير (١٦ / ٣٢٦):

(٢) روح البيان (٥ / ٤٣٨)

(٣) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (٣ / ٤٢٩) ، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة ، الطبعة: ١٤١٩ هـ

(٤) البحر المديد (٣ / ٤٢٩)

وهنا يأتي الختام الزاجر لما سبق بقوله : (قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى) " أي : انزلا من الجنة إلى الأرض، هذا خطاب العتاب واللوم فى الصورة ، وخطاب التكميل والتشريف فى المعنى"(١)، فكأن كل ما تقدم عن علاقة الشيطان بالإنسان لا يكفي، ولا بد من إحاطة هذه العلاقة بسراج متين ، وسياج منيع ؛ لما تحمله من جزاء الممتثلين ، وعقوبة المعرضين والتنويه بما ينتظرهم من عذاب أليم .

وهذا الترتيب للقصة بوضع ما حباه الله للإنسان من تكريم ، ثم التنبيه على عداوة الشيطان يعد من أبلغ وأشد أنواع التحذير بما تحمله من استشعار الغضب الإلهي لاستجابة الإنسان للشيطان .

ومن هنا فعلاقة المطلع بالختام علاقة التعقيب بعد الإجمال ، فكأن هذا الختام فيه تعقيب على ما في الآيات من حقائق وتنبهيات لعلاقة الإنسان بالشيطان .

وهكذا تتشابك الخيوط بين المطلع والمقصد وإن بعدت المسافات ؛ مما يزيد من وحدة الهدف ، وهذا يقوي معنى أن الآيات يجمعها نمط من الخيوط المتقابلة تارة ، والمتجانسة أخرى .

علاقة البدايات بالنهايات في تلك القصة .

إذا نظرنا إلى انتهاء مراحل القصة بالهبوط للأرض لسيدنا آدم- عليه السلام- نجد أنه إنما هو تحقيق وإنجاز لما بدأ به أول مراحل القصة بإخباره للملائكة بكونه جاعلا في الأرض خليفة،فجعله خليفة لله في الأرض لا يتحقق إلا بهبوطه إليها وبهذا يكون في الأمر بالهبوط لسيدنا آدم إلى الأرض تحقيقا لمراد الله- تعالى-

وهذا يعد بمثابة علاقة رد عجز القصة على صدرها ؛ لأنه يضع القصة حول محورين رئيسين ، وإطارين اثنين هما : تكريم الله للإنسان ، وعداوة الشيطان للإنسان، وهذان الإطاران هما الأقرب إلى واقع القصة وإلى تحديد أركانها وضبط محاورها .

---

(١) روح البيان (٥ / ٤٤١)

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد - ﷺ -

وبعد ...

بعد هذه الرحلة الشيقة مع كتاب الله تتضح بعض السمات والخصائص من خلال النتائج الآتية :

١ . آيات سورة البقرة جاءت مجملة لكل مراحل القصة ثم بعد ذلك أتت بقية السور مفصلة لما أجملته السورة الكريمة منذ بداية الخلق ، وانتهاء إلى مرحلة الهبوط للأرض ، وهي تمثل معاني التكريم لسيدنا آدم - عليه السلام - في كل مراحل القصة ، ومن هنا فإن القسيم المشترك لكل معاني القصة وسياقاتها في جميع مراحلها هو التكريم ، وما يأتي معها من معان أخرى فهي معاني تتناسب مع سياق الآيات والسورة الواردة فيها ، والمرحلة التي تتحدث عليها .

٢ . غلب على مطالع قصة سيدنا آدم تحديد الزمن ومراعاة الوقت مع التأكيد على وقوعه ، وهو مما يتلاءم مع الحديث عن بداية الخلق ، وما يحيط به من عالم الغيبيات ؛ لأنها تضيف ملمحا جديدا ، وبعدا آخر قد لا تتسع له وتقبله بعض العقول كما أن البدء بإذ فيه إثبات للقضية من أولها ، وفي كل اتجاهاتها ومراحلها المختلفة ، وهذا مما يعطي إثارة وتشويقاً لمعرفة مضمون الكلام ، ويدلل على مدى العناية بهذا الأمر.

٣ . مطالع القصة تلاقت مع مقاصدها من وجوه متعددة ، فقد تكون العلاقة الإجمال والتفصيل كما جاء في سورة البقرة ، وقد تكون علاقة الترقي والتسلسل كما في سورة الإسراء ، وقد تكون علاقة التنظير كما في سورة الكهف .

٤. مفردات المطلع وتراكيب نظمه لها دورها البارز في إدراك العلاقة بين المطلع والمقصد ، واستكشاف الصلة بينهما ، وإذا كانت مفردات مطالع قصة سيدنا

آدم -عليه السلام- لها مفرداتها التي تميزها عن مفردات مطالع القصص القرآني إلا أننا نلحظ تقاربا بين ألفاظ مطالع تلك القصة وتراكيبها، وهذا التقارب في معظم مطالعها يتطلب إيلاء هذه الألفاظ ومفرداتها وتراكيب نظمها اهتماما بالغا لاستكشاف ما بينها وما بين مقاصدها من صلات ، وكيف كانت مقدمة وتمهيدا لما يأتي بعدها في المقصد من ألفاظ وتراكيب ، مع الاستعانة بكلام العلماء وتفسيرهم لآي القرآن للوصول إلى الخطوط الدقيقة الرابطة بين المطالع والمقاصد .

٥ . مفردات المقصد وتراكيب نظمه يعد خيطا ممتدا لألفاظ المقصد وتراكيبه نظمه ، وألفاظ السورة الوارد فيها ، وتراكيبها المبثوثة فيها ، باعتبارها جزء لا يتجزأ منها ، وهو من مكملاتها ، وهو مما يدلل على الوحدة العضوية للسورة القرآنية ، وهذا باب واسع في علم المناسبات .

٦ . متشابه النظم له دوره في استكشاف علاقة مطالع القصة بمقصدها ، وخصوصا إذا كانت القصة ذكرت في سور متعددة ، فالتعبير يختلف باختلاف المقصد ، ويكون وسيلة لاستكشاف علاقته بالمطلع ، وهذا مما يتطلب ملاحظة الفروق الدقيقة بين التعبيرات المختلفة ، كما أن خواتيم القصة في السورة له علاقته وصلته التي ترتبط بمطلع القصة ومقصدها وتتلاءم معها ، وهذا يتضح لنا بوضوح في عرض القرآن الكريم لقصة سيدنا آدم - عليه السلام -.

٧ . نهاية القصة في سورة طه يعد بمثابة رد عجز القصة على صدرها ؛ لأنه يضع القصة حول محورين رئيسين ، وإطارين اثنين هما : تكريم الله للإنسان ، وعداوة الشيطان للإنسان، وهذان الإطاران هما الأقرب إلى واقع القصة، وإلى تحديد أركانها، وضبط محاورها .

٨ . القصص القرآني يمكن تقسيمه من ناحيتين : ناحية المعاني الواردة فيها، وناحية المراحل التي تتحدث عنها القصة باعتبار أن حديث القرآن في كل سورة يتناول جزءا مهما من مراحلها يكون مكملا لها، وإن تشابهت بعض ألفاظ القصة وتراكيبها مع ألفاظ سورة أخرى وتراكيبها.

فهرس المراجع والمصادر

* إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

* أسرار البلاغة /عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار مدني بجدة، الطبعة الأولي١٤١٢ هـ-١٩٩١م.

* أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء ،المحقق: عبد القادر أحمد عطا ، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض . دار النشر: دار الفضيلة .

* إعراب القرآن وبيانه ، المؤلف : محيي الدين بن أحمد مصطفى درويش ، الناشر : دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، (دار اليمامة – دمشق – بيروت) ، (دار ابن كثير – دمشق – بيروت) ،الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ .

* أنوار التنزيل وأسرار التأويل ،المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ،المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ

* الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، شرح وتعليق د / محمد عبد المنعم خفاجي بالهامش ، الناشر : دار الكتاب الحديث الكويت (بدون تاريخ) .

* البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ، المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي ، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان ، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، الطبعة: ١٤١٩ هـ .

* البديع في البديع لابن المعتز (ص: ٣٦) الناشر: دار الجيل ، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

* البرهان في علوم القرآن ، المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه ودار المعرفة، بيروت، لبنان .

* البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري وأثرها فى الدراسات البلاغية د/ محمد محمد أبو موسي ط٢ ، مكتبة وهبة ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٩م .

* بلاغة الكلمة والجملة والجمل د/ منير سلطان – منشاة المعارف بالإسكندرية.

* تاج العروس من جواهر القاموس للزَّبيدي ، المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية . (بدون تاريخ)

* تبادل المفردات في متشابه النظم القرآني بين السياق والدلالة، إعداد / كمال أحمد محمد زين، رسالة دكتوراة مخطوطة بكلية اللغة العربية بأسيوط.

* تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لإبن أبي الإصبع المصري، تقديم وتحقيق/ د/ حفني محمد شرف ، الناشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية لجنة إحياء التراث الإسلامي (بدون تاريخ)

* التحرير والتنويرللطاهر بن عاشور ، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

* التصوير البياني دراسة تحليلية لمسائل البيان د/ محمد محمد أبوموسى، الناشر مكتبة وهبة ، ط٤ : ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .

* التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي الناشر دار عمارعمان الطبعة الثامنة ١٤٣٤ هـ / ٢٠١٢م

* تفسير البغوي المحقق : عبد الرزاق المهدي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ

* تفسير الشعراوي المؤلف: محمد متولي الشعراوي ،الناشر: مطابع أخبار اليوم .

* تفسير ابن كثير،المحقق: سامي بن محمد سلامة ،الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع ، الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
* تفسير المراغي ، المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي ، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ م
* تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص ١١٧ مطبعة المعارف بغداد ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥م
* حَاشِيةُ الشِّهَابِ عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوِي، الْمُسَمَّاة: عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى عَلَى تفْسيرِ البَيضَاوي ، المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي ، دار النشر: دار صادر – بيروت .
* الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية د/كمال عز الدين ط.دار أقرا ط.الأولى ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.
* خصائص التراكيب (دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني) ، د / محمد محمد أبو موسى ، الناشر مكتبة وهبه ، ط٨ : ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩م .
* ودرة التنزيل وغرة التأويل للعلامة الإسكافي دراسة وتحقيق وتعليق: د/محمد مصطفى آيدين ، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي ـ معهد البحوث العلمية مكة المكرمة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م
* دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، ت / : محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م
* روح البيان المؤلف: إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، المولى أبو الفداء :الناشر: دار الفكر - بيروت .
* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

* السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي ، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة ، عام النشر: ١٢٨٥ هـ

* شرح أحاديث من صحيح البخاري (دراسة في سمت الكلام الأول) د/محمد محمد أبو موسى ، بتصرف الناشر : مكتبة وهبه ،ط١ : ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١م

* الصبغ البديعي في اللغة العربية ، تأليف / أحمد إبراهيم موسى ، الناشر : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٩م

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق ، ت / محمد محيي الدين عبد الحميد ، الناشر : دار الجيل – بيروت ، ط ٥ : ١٤٠١ هـ / ١٩٨١م .

* عيار الشعر لابن طباطبا العلوي ، منشأة المعارف الاسكندرية ١٩٥٦ هـ

* غرائب التفسير وعجائب التأويل المؤلف: محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء ،دار النشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية – جدة، مؤسسة علوم القرآن – بيروت

* غرائب القرآن ورغائب الفرقان ،المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ، المحقق: الشيخ زكريا عميرات ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ

* فتح الرحمن بكشف ما تلبس من القرآن للشيخ أبي يحيى زكريا الأنصاري، ت / د / عبد العزيز الدردير موسى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م .دار الطباعة المحمدية (بدون تاريخ)

* فتح القدير للشوكاني ، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ .

* الفروق اللغوية ، المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم ، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر .

* في ظلال القرآن المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي ، الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة ، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ

* قرينة السياق وأثرها في النص القرآني د / عبد الباقي بدر الخزرجي ، مجلة كلية التربية الأساسية العدد الثامن والستون لسنة ٢٠١١م .

* الكشاف للزمخشري ، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ

* اللباب في علوم الكتاب المؤلف: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني ، المحقق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م .

* الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية ، لأبي البقاء الحنفي ، ت / عدنان درويش – محمد المصري ، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت .

* لسان العرب ، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ، الناشر: دار صادر – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ

* لطائف الإشارات = تفسير القشيري المؤلف: عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ، المحقق: إبراهيم البسيوني ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر ، الطبعة: الثالثة

* مجاز القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمى البصري ، المحقق: محمد فواد سزگين ، الناشر: مكتبة الخانجى – القاهرة الطبعة: ١٣٨١ هـ

* المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي ، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد ، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ

* معاني القرآن وإعرابه ، المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج ، الناشر: عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م:
* معاني النحو، د / فاضل السامرائي، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر الموصل الطبعة الأولى (بدون تاريخ)
* مفاتيح الغيب = التفسير الكبيرالمؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.
* معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة طلع م(٣/ ٤١٩) المحقق: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر ،عام النشر: ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
* المفردات في غريب القرآن المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى ، المحقق: صفوان عدنان الداودي ، الناشر: دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٢ هـ.
* ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (المتوفى: ٧٠٨هـ) وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
* من الخصائص البلاغية واللغوية في أسلوب الحديث النبوي الشريف ، د/فتحية فرج العقدة ط الأمانة ١٤١٤هـ ١٩٩٣ م.
* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.